المجلة العلمية لكلية الآداب بالوادي الجديد – مجلة علمية محكمة

# الإحياء والإماتة في القرآن الكريم
# دراسة في ضوء السياق البلاغي

د. رباب صالح محمد جمال[1]

**التمهيد:**

اعترف العلماء والمفسرون بعجزهم عن إيجاد تعريف الموت والحياة، وكذا الإماتة والإحياء، وفي ذلك يقول الطاهر بن عاشور: "وتعسر تعريف الحياة أو تعريف دوامها على الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين تعريفًا حقيقيًّا بالحد"[2]، ومع ذلك حاول المفسرون الوصول لفهم الموت والحياة بمظاهرهما، فذهب أغلبهم في معنى الموت إلى العدم والجمود في التراب وهو أصل نشأة أبينا آدم– عليه السلام– وفي النطف التي لم تتخلق بعد. فمعنى قوله تعالى: (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا) أي: أموات الذكر خمولًا في أصلاب آبائكم نُطفًا لا تُعرفون ولا تُذكرون"[3].

---

[1] جامعة أم القرى– كلية اللغة العربية.

[2] الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ١٩٨٤م، دار سحنون للنشر والتوزيع/ تونس ج١ ص ٣٧٦ آية البقرة ٢٨، وانظر سيد قطب: ظلال القرآن، طبعة ١٢، ١٤٠٦ هـ، دار العلم للطباعة والنشر/ جدة، دار الشروق للطباعة والنشر/ القاهرة مج ١ ج ٣ ص ٢٩١–٢٩٢ البقرة ٢٥٨.

[3] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٤٣١ هـ، دار الحديث/ القاهرة ج١ ص ١٤٨، آية البقرة ٢، وانظر محمد بن محمد أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن (القرآن) الكريم، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ، دار إحياء التراث العربي/ بيروت ج١ ص٧٧، شهاب الدين محمد الألوسي : روح المعاني في تفسير القرن( القرآن) العظيم والسبع المثاني، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ، دار إحياء التراث العربي / بيروت ج١ ص ٣٠٦ البقرة ٢٨، الطاهر ج٢٤ ص ٩٧ غافر ١١، أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، صححه أحمد عبد العليم البردوني، الطبعة الثانية ١٣٧٢ هـ، دار الكتاب العربي ج١٦ ص ١٧٣ الجاثية ٢٦، الطاهر ج٢٧ ص ١٤٤ النجم ٤٤ ابن جرير ج ٢٧ ص ٦٦١ الحديد ٢، القرطبي ج ١٥ ص ٥٨ يس ٧٨.

ويقول الزمخشري في الآية نفسها:" فإن قلت: كيف قيل لهم أمواتًا في حال كونهم جمادًا، وإنما يقال ميت فيما يصح فيه الحياة من البلي([4])؟ قلت: بل يقال ذلك لعادم الحياة، كقوله: (بَلْدَةً مَيْتًا) [الفرقان: ٤٩]... ويجوز أن يكون استعارة لاجتماعهما في أن لا روح ولا إحساس"([5]).

ويقول الرازي:" اختلفوا في أن إطلاق اسم الميت على الجماد حقيقة أو مجازًا **والأكثرون على أنه مجاز**؛ لأنه شبه الموات بالميت وليس أحدهما من الآخر بسبيل؛ لأن الميت ما يحل به الموت ولا بدّ وأن يكون بصفة من يجوز أن يكون حيًا في العادة فيكون اللحمية والرطوبة **وقال الأولون هو حقيقة فيه**... والأول هو الأقرب، ؛لأنه يقال في الجماد إنه موات وليس بميت فيشبه أن يكون استعمال أحدهما في الآخر على سبيل التشبيه"([6]).

---

[4]–هي في الكتاب البتى ولعل البلي أقرب للصواب.

[5] أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ج ١ ص ٢٦٩ البقرة ٢٨، وانظر أبوحيان ج٦ ص ٣٥٧ الحج ٦٦ ابن جرير ج ١٨ ص ٣١٣ المؤمنون ٨٠، وانظر القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٥ هـ ج١ ص ١٥٨، وانظر محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، راجع أصوله يوسف الغوش، الطبعة الخامسة، ١٤٢٩ هـ دار المعرفة / بيروت– لبنان ج١ ص ٤٣ آية البقرة ٢٨، وانظر محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي : االبحر المحيط، دراسة وتحقيق عادل عبد الموجود، الشيخ علي معوض، شارك في تحقيقه دكتور زكريا النوتي، دكتور أحمد الجمل، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ، دار الكتب العلمية / لبنان ج٥ ص ٤٣٨، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، راجعه نقحه الشيخ خالد محمد محرم، ١٤١٩ هـ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر / صيدا – بيروت ج٢ ص ٥٠٣، محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي، ١٩٩١ م، أخبار اليوم قطاع الثقافة ج١٢ ص ٧٦٧٩ الحجر ٢٣، برهان الدين أبو الحسن البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ، دار الكتاب الإسلامي / القاهرة ج ١٣ ص ٨٦ الحج ٦٦.

[6] تفسير الرازي، ٣٧٧/٢.

ويقول الطاهر: "الإنسان كان مركب أشياء موصوفًا بالموت أي لا حياة فيه.... وإطلاق الأموات هنا مجاز شائع بناء على أن الموت هو عدم اتصاف الجسم بالحياة سواء أكان متصفًا بها من قبل كما هو الإطلاق المشهور في العرف أم لم يكن متصفًا بها إذا كان من شأنه أن يتصف بها"([٧])، ويرى البقاعي أن "إطلاق الموت على ما لم تحله حياة مجاز"([٨]).

وذهب بعض المفسرين في تفسير الإماتة الأولى في آية غافر: (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) إلى معنى خلقهم أمواتًا، يقول الزمخشري فيه "فإن قلت: كيف صحّ أن يسمى خلقهم أمواتًا: إماتة؟ قلت: كما صحّ أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل! وقولك للحفار: ضيق فم الركية ووسع أسفلها، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر، ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات"([٩]).

ويذهب جمهور المفسرين في معنى الحياة إلى الروح والإحياء نفخها([١٠])، ويعرف البيضاوي الحياة بقوله: والحياة حقيقة في القوة الحساسة، أو ما يقتضيها وبها سمي الحيوان حيوانًا مجازًا في القوة النامية، لأنها من طلائعها ومقدماتها، وفيما يخص الإنسان من الفضائل، كالعقل والعلم والإيمان من حيث إنها كمالها وغايتها، والموت بإزائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة قال تعالى: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ

---

[٧] الطاهر ج ١ ص ٣٧٥.

[٨] البقاعي ج ١ ص ٢١٤.

[٩] الزمخشري ج٣ ص ٤١٨، وانظر الرازي ج٢٧ ص ٣٩ آية غافر ١١ وانظر أبو سعيد ناصر الدين عبد الله البيضاوي : تفسير البيضاوي العظيم، ضمن حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للقاضي شهاب الدين الخفاجي، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ، دار الكتب العلمية / بيروت – لبنان ج٨ ص ٢٤٤، وانظر البيضاوي ج ٨ ص ٢٤٤ غافر ١١، أبو السعود ج٧ ص ٢٦٩، الألوسي ج ٢٤ ص ٤٠٩ غافر ١١.

[١٠] انظر ابن جرير ج ١ ص ٣٠٧، البيضاوي ج٢ ص ١٦٦، أبو حيان ج١ ص ٢٧٧، أبو السعود ج١ ص ٧٧، الألوسي ج١ ص ٣٠٦، الطاهر ج١ ص ٣٧٦ البقرة ٢٨، البقاعي ج ٤ ص ٥٠ البقرة ٢٥٨.

يُمِيتُكُمْ)، وقال: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، وقال: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) وإذا وصف بها الباري تعالى؛ أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا، أو معنى قائم بذاته يقتضي ذلك على الاستعارة"([11])، ونقل البقاعي عن الحرالي معناها في "النبات بالنمو والاهتزاز مع انغراسه إلى حياة ما يدب بحركته وحسه إلى غاية حياة الإنسان في تصرفه وتصريفه إلى ما وراء ذلك من التكامل"([12])، ويقول الطاهر: "وأوضح تعاريفها بالرسم أنها قوة ينشأ عنها الحس والحركة وأنها مشروطة باعتدال المزاج والأعضاء الرئيسية التي بها تدوم الدورة الدموية، والمراد بالمزاج التركيب الخاص المناسب مناسبة تليق بنوع ما من المركبات العنصرية.... فإذا انقطع عمل المزاج فذلك الموت. فالموت عدم والحياة ملكة"([13])، ويقول الشعراوي: "والإحياء: أن يعطي المحيي ما يُحييه قوة يؤدي بها المهمة المخلوق لها... والإحياء يُطلَق في القرآن على معانٍ متعددة، منها الحياة المادية التي تتمثل في الحركة والأكل والشرب، ومنها الحياة في الآخرة التي قال الله عنها: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [العنكبوت:٦٤]".([14]) ويرى بعض المفسرين أن معنى الإحياء والإماتة أي: الإيجاد والإعدام.([15])

وإذا كانت الحياة هي الروح والإحياء نفخها فإن الموت سلب أو نزع هذه الروح، كما سبق ذكره عند الشعراوي في النص السابق له، ويقول ابن جرير: "ثم يميتكم

---

[11] البيضاوي ج ٢ ص ١٧٠ البقرة ٢٨ وانظر أبو السعود ج ١ ص ٧٧، الألوسي ج١ ص ٣٠٥-٣٠٦، البقاعي ج١ ص ٢١٤ البقرة ٢٨.

[12] البقاعي ج ١ ص ٢١٥ البقرة ٢٨، وانظر الرازي ج ٢٩ ص ١٩ النجم٤٤، الألوسي ج١٤ ص ٣٧٤ الحجر ٢٣، ج١ ص ٣٠٥ البقرة ٢٨.

[13] الطاهر ج١ ص ٣٧٦ البقرة ٢٨.

[14] الشعراوي ج ١٦ ص ٩٩١٦-٩٩١٧ الحج ٦٦.

[15] ابن كثير مج ٤ ج٢٥، البقاعي ج ١٨ ص ١٠١ الجاثية ٢٦.

بقبض أرواحكم وإعادتكم رفاتًا"([16])، ويفسر الطاهر الموت بمظاهره فيقول: "حالة الموت، وهي وقوف القلب وذهاب الإدراك والإحساس"([17])، ويفسر الرازي الموت بمظاهره أيضًا فيقول: "أمات أي خلق الموت والجمود في العناصر"([18]).

## الفصل الأول

## القسم الأول

## الإحياء والإماتة وعلاقتهما بانفراد الله تعالى بالألوهية

تأتي أفعال الإحياء والإماتة في هذا القسم إثباتًا لألوهية الله تعالى الحق وكمال قدرته التي يدخل فيها القدرة على البعث، وهي مما لا يدعيها مؤمن ولا كافر ولا حتى ملحد.

والمتأمل في آيات هذا القسم يجدها تنقسم قسمين: قسم يرد فيه فعلا الإحياء والإماتة وهو الأغلب بحذف مفعولهما، وقسم يذكر فيه المفعول ويكون ضميرًا للمخاطب أو للمتكلم أو للغائب، فمما ورد فيه المفعول ضميرًا للمخاطب عدة مواضع([19]).

ولمعرفة السياق نجد آية البقرة: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) قد سبقت بذكر كفر الكافرين ونقضهم ميثاق الله وإفسادهم في الأرض، ثم وجهت الخطاب لهم منكرة عليهم كفرهم بلفظ الاستفهام (كيف)، الذي يسأل به عن الحال، وإنكار الحال إنكار لذات الكفر، يقول الزمخشري: "حال الشيء تابعة لذاته، فإذا امتنع ثبوت الذات؛ تبعه امتناع ثبوت

---

[16] ابن جرير ج ١ ص ٣٠٧ البقرة ٢٨، وانظر أبو حيان ج٢ ص ٢٦٠ البقرة ٢٥٩، البقاعي ج ١٨ ص ١٠١ الجاثية ٢٦، الشعراوي ج٢ ص ١١٢٧ البقرة ٢٥٨.

[17] الطاهر ج٢ ص ٤٧٩ البقرة ٢٤٣، انظر الألوسي ج ١٤ ص ٣٧٤ الحجر ٢٣.

[18] الرازي ج ٢٩ ص ١٩ آية النجم ٤٤.

[19] آية البقرة ٢٨، الحج ٦٦، الروم ٤٠، الجاثية ٢٦.

الحال؛ فكان إنكار حال الكفار؛ لأنها تبيع ذات الكفر ورديفها إنكارًا لذات الكفر، وثباتها على طريق الكناية، وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ"([٢٠])، فالآية تنكر عليهم وتتعجب من كفرهم مع ما رأوه من دلائل ألوهية الله تعالى، وهي الإحياء والإماتة حيث وهبهم سبحانه وتعالى الحياة بعد الموت سواء أريد به كونهم في أصلاب آبائهم([٢١]) أو أريد به العدم([٢٢])، أو كونهم نطفًا لا حياة فيها([٢٣])، أو التراب الذي خلقوا منه([٢٤])، ثم يميتهم الإماتة التي يعلمون أنها مثل الإحياء الأول لا قدرة لهم في إيقاعها أو ردها، ثم يحييهم الإحياء الذي يجادلون فيه، ولكن القرآن هنا عدّه أمرًا مسلّمًا لوجود دلائله في الكون([٢٥])؛ فجاء به دون توكيد (يحييكم). ومع التعجب هو توبيخ لهم كون هذا الكفر مما لا ينبغي. ومواجهتهم بالخطاب أكثر ردعًا في الإنكار من ضمير الغيبة، يقول أبو حيان: "وفائدة هذا الالتفات أن الإنكار إذا توجه إلى المخاطب كان أبلغ من توجهه إلى الغائب، لجواز أن لا يصله الإنكار، بخلاف من

---

[٢٠]- الزمخشري ج١ ص ٢٦٩.

[٢١]- انظر ابن جرير ج١ ص ١٤٦، ابن عطية ج١ ص١٥٨، الرازي ج٢ص١٥١، القرطبي ج١ ص ٢٤٩، أبو حيان ج١ ص٢٧٦، ان كثير ج١ ص٥٨، أبو السعود ج ١ ص ٧٧، الشوكاني ج١ ص٤٢، الطاهر ج ١ ص ٣٧٥.

[٢٢]- انظر ابن جرير الطبري ج١ ص١٤٥، ابن عطية ج١ ص١٥٨، الرازي ج٢ ص ١٥١، القرطبي ج٢ ص٢٤٩، أبو حيان ج١ ص٢٧٦، ابن كثير مج ١ ج١ ص ٥٨، الشوكاني ج ١ ص ٤٢، الشعراوي ج ١ ص٢٢٤، الطاهر عاشور ج ١ ص ٣٧٥.

[٢٣]- انظر ابن جرير ج١ ص ١٤٨، ابن عطية ج١ ص١٥٨، البيضاوي ج٢ ص١١١، أبو حيان ج١ ص٢٧٧، البقاعي ج١ ص٢١٥، أبو السعود ج١ ص٧٧، الالولسي ج١ ص٣٠٦.

[٢٤]- انظر ابن عطية ج١ ص١٥٨، الرازي ج٢ ص١٥١. البقاعي ج١ ص١١٥.

[٢٥]- انظر الزمخشري ج١ ص٢٦٩، ابن عطية ج١ ص١٥٩، الرازي ج٢ ص١٥٢، البيضاوي ج٢ ص١١١، أبو حيان ج١ ص٢٧٦. البقاعي ج١ ص٢١٧، أبو السعود ج١ ص ٧٧، الألوسي ج١ ص ٣٠٦، الطاهر ج ١ ص ٣٧٧.

كان مخاطبًا؛ فإن الإنكار عليه أردع له عن أن يقع فيما أنكر عليه"([٢٦])، وفي هذا الإنكار والتوبيخ زجر عن الكفر ودعوة إلى اكتساب الإيمان([٢٧]).

واختلفت أدوات العطف في الآية فجاءت الأولى بالفاء {فَأَحْيَاكُمْ} والبواقي بثم، وذكر المفسرون في الحكمة من عطف الإحياء الأول بالفاء أن الإحياء الأول تعقب الموت بغير تراخ([٢٨])، أو لم يكن لهم معرفة بمدته، فما شاهدوه وعرفوه هو لحظة الانتقال من العدم إلى الوجود([٢٩])، وجاء عطف الموت والإحياء الثاني بثم؛ لأن الموت "تراخى عن الإحياء، والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت"([٣٠]).

وبعد سياق ذكر جزاء الكافرين في آية الحج([٣١])، وذكر مجموعة من آيات ألوهيته سبحانه ونعمه وكمال قدرته ومنها القدرة على البعث([٣٢]) يرد التقرير بالإحياء والإماتة في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)، "بمنزلة نتيجة القياس"([٣٣]) أي ما دام سبحانه المتفرد بما ذكره من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، ومن إنزال المطر، وغيره من أنواع النعم ودلائل القدرة فهو الإله القادر على إحيائكم وإماتتكم ثم إحيائكم مرة أخرى، ففي هذه النتيجة إثبات للألوهية والبعث. ويشير ختم الآية بقوله: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ) إلى شيء من التوبيخ لهذا الجحود لنعم الله تعالى المقابل لرأفة الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ

---

[٢٦]– أبو حيان ج١ ص٥ ٢٧، وانظر الألوسي ج١ ص٣٠٤.

[٢٧]– انظر الرازي ج٢ ص١٤٩، البقاعي ج١ ص٢١٨، أبو السعود ج١ ص٧٧.

[٢٨]– انظر الزمخشري ج١ص ٢٧٠، والرازي ج ٢ ص١٤٩، البيضاوي ج٢ ص١١١، أبو السعود ج١ ص٧٧.

[٢٩]– انظر البقاعي ج١ ص٢١٥.

[٣٠]– الزمخشري ج١ ص٢٧٠ وانظر البقاعي ج١ص٢١٥، أبو السعود ج١ ص ٧٧.

[٣١]– آية ٥٧.

[٣٢]– انظر البقاعي ج ١٣ ص ٧٧ وما بعدها.

[٣٣]– الطاهر ج ١٧ ص ٣٢٦.

رَحِيمٌ)، وهي كسابقتها تفيد مع الزجر عن الكفران الحث على الشكر(٣٤)، لتضمنها نعمتي الإحياء والإماتة(٣٥).

وآية الروم: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) التي ذكر الإحياء الأول فيها بلفظ الخلق، جاءت عقب سياق يذكر صورًا مختلفة لجحود الكفار لألوهية الله تعالى منها اتباع الأهواء بغير علم، وتفريق الدين والإشراك بالله، وفي ذلك يقول ابن عطية: "كرر مخاطبة الكفرة في أمر أوثانهم فذكر أفعال الله تعالى التي لا شريك له فيها وهي: الخلق والرزق والإماتة والإحياء، ولا يمكن أن ينكر ذلك عاقل، ووقف الكفار على جهة التقرير والتوبيخ هل من شركائهم أي الذين جعلوهم شركاء من يفعل شيئًا من ذلك"(٣٦)، وليسوا شركاء حقيقيين. ولما تبين أن أيًّا من هذه الأمور العظام بما دل عليه الاسم الخاص بالبعيد {ذَلِكُمْ}(٣٧) لا يقدر عليها إلا الله تعالى مما أثبت الوحدانية له، وهو الغرض المقصود في هذه الآية، مع إثبات الحشر(٣٨)؛ جاء تنزيه الله تعالى لذاته معرضًا عنهم (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) زيادة في التعظيم والعظمة(٣٩).

وتكرر استعمال لفظ الخلق هنا، وفي آيات عديدة سابقة في هذه السورة(٤٠)، والخلق يعنى الإيجاد على تقدير واستواء(٤١)، ولعل وروده هنا في هذا السياق

---

٣٤- انظر الرازي ج٢٣ ص ٦٣.

٣٥- انظر البقاعي ج ١٣ ص ٨٦.

٣٦ ابن عطية ج ج١٢ ص ٢٦٤ .

٣٧ انظر البقاعي ج ١٥ ص ١٠٣.

٣٨ الرازي ج ٢٥ ص ١٢٧

٣٩ انظر البقاعي ج ١٥ ص ١٠٣

٤٠٤٠ آية ٨،١١، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٧

٤١ انظر الزمخشري ج ١ ص ٢٢٨ تفسير آية البقرة ٢١

ليهيء استقلال الامتنان بنعمة الرزق؛لأنها تشير إلى الإبقاء([٤٢]) فبها مع الإيجاد يتحقق الإحياء الكامل.

وفي سياق إبطال إنكار الكفار للحشر ولوجود الإله يأتي قوله: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [الجاثية ٢٦]، وفي ذلك يقول الرازي: "واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم في إنكار القيامة وفي إنكار الإله القادر، أما شبهتهم في إنكار القيامة فهي قوله تعالى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا).... وأما شبهتهم في إنكار الإله الفاعل المختار، فهو قولهم: (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)... فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك"([٤٣])، وجاءت الآية موضع الدرس لتثبت الألوهية والحشر، وتولت الآية الرد على تعنت جديد، وهو قولهم: (فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)؛ لأنهم "لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل وحسبوا أن ما قالوه قول مبكت؛ ألزموا ما هم مقرون به من أن الله عز وجل هو الذي يحييهم ويميتهم، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا أو أصغوا إلى داعي الحق وهو جمعهم إلى يوم القيامة ومن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على الإتيان بآبائهم وكان أهون شيء عليه"([٤٤])، فاختصاص الله تعالى بالإحياء والإماتة يبطل ادعاءهم بقدرة الدهر على ذلك، ويضيف إثبات قدرة الله تعالى على جمعهم يوم القيامة مما يقاس عليه إمكان تحقيق طلبهم وهو الإتيان بآبائهم، وفي السياق ملمح توبيخ وتقريع لهم بكونهم يتبعون الظن، وأن أكثرهم (لَا يَعْلَمُونَ) لجهلهم وقصور فكرهم([٤٥])، وفي نفي العلم عن أكثرهم إشارة إلى أن بعضهم سيتدبر الآيات ويؤمن.

---

[٤٢] انظر الرازي ج ٢٥ ص ١٢٧، الطاهر ج ٢٢ ص ٢٥٤آية فاطر ٣، الطاهر ج ٢٤ ص ١٩١ آية غافر ٦٤

[٤٣] الرازي ج ٢٧ ص ٢٦٩

[٤٤] الزمخشري ج ٣ ص ٥١٣

[٤٥] انظر البقاعي ج ١٨ ص ١٠٢-١٠٣، أبو السعود ج ٨ ص ٧٤

وجاء فعلا الإحياء والإماتة مضارعين للإشارة إلى تكرر حدوثهما([٤٦])، ودل استعمال المضارع في فعل الجمع على أصل معناه من الاستقبال. ولعل في إيثار لفظ الجمع يوم القيامة (يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) المتضمن للإحياء والجزاء([٤٧]) دعوة لهم إلى الرجوع عن الكفر والإيمان بالله الإله الواحد القادر، وهو ملائم من جهة أخرى لما بنيت عليه السورة من ذكر البعث والرجوع إلى الله تعالى للحساب في آيات عدة سابقة لهذه الآية، ولاحقة([٤٨]).

وهكذا نجد عند التأمل في سياقات ذكر مفعول فعلي الإحياء والإماتة ضميرًا للمخاطبين قدرًا من التوبيخ لما في المخاطبة والمواجهة بالحقيقة التي ينكرونها من الردع والتقريع على هذا الكفر، وفيه ملمح لطف بكل من يسمع الآيات بحثهم على التراجع بعد التأمل والتفكر وعلى الإيمان بالله الذي لا ينكرون تفرده بالقدرة على الإحياء والإماتة.

والآيات– عدا آية البقرة– ذكرت إحياءً أولًا يشاهدونه، وأثبتت الإحياء الثاني بالقياس أو لوضوح أدلته، وانفردت آية البقرة بذكر الموت السابق للحياة الأولى، ولعل الحكمة من ذلك ذكر قصة خلق آدم عليه السلام، وهو أول الخلق حيث أوجده الله تعالى من العدم، ونفخ فيه من روحه فوهبه الحياة.

وتختلف دلالة ذكر المفعول لفعلي الإماتة والإحياء حين يكون ضميرًا للمتكلم الذي ورد في موضعين، أولهما: على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) [الشعراء:٨١]، والثاني : على لسان الكفرة في النار في قوله تعالى: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) [غافر: ١١]. أما ضمير المتكلم في قول إبراهيم عليه السلام فهو اعتراف

[٤٦] انظر البقاعي ج ١٨ ص ١٠١
[٤٧] انظر أبو حيان ج ٨ ص ٥٠.
[٤٨] آية ٢٢،١٧،١٥، ٢٨،٢٧، ٣٢.

المؤمن الأواه المنيب أن له ربًّا يميته ثم يحييه للبعث([٤٩])، وفيه اعتراف ضمني بأنه أحياه من العدم أو من الموت الأول، وقد ورد ضمن آيات كمال قدرة الله تعالى التي تثبت الألوهية له وحده وتنفيها عن آلهتهم المزعومة. وجرى السياق من قوله: (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) [الشعراء: ٧٧–٨١] على استعمال ضمير المتكلم "تصويرًا للمسألة في نفسه... وأراهم أنها نصيحة نصح بها نفسه أولًا، وبنى عليها تدبير أمره لينظروا فيقولوا ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه... ليكون أدعى لهم على القبول"([٥٠])، وهو ما يعد استمالة لهم إلى الحق. وفي العطف بـ(ثم) في قوله {ثُمَّ يُحْيِينِ} ذهب البقاعي إلى دلالة التراخي الزمني والرتبي المفيد لبعد مابين المرحلتين في الرتبة([٥١])، في حين ذهب الألوسي إلى القول بالتراخي الزمني([٥٢]) ومثله في كون المفعول ضميرا للمتكلم آية غافر: (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) [غافر: ١١] التي وردت في سياق توبيخ الكافرين على كفرهم في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ) [غافر: ١٠]، وذكرت اعترافهم بالإحيائين: الأول من العدم، والثاني للبعث والإماتتين: الأولى وهي العدم، والثانية في الدنيا، ويحمل هذا الاعتراف؛ لأنه اعتراف المضطر في قول الحقيقة؛ لأنه بين يديها أو هي بين يديه قدرًا من الاستعطاف والاسترحام لله تعالى لرجائهم الخروج من النار([٥٣])، (فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) [غافر: ١١]، وتتجلى في هذه الآية– والقرآن كله شاهد على ذلك–

---

[٤٩] سيد قطب في ظلال القرآن المجلد ٥ ص٢٦٠٣.

[٥٠] الزمخشري ج ٣ ص ١١٦.

[٥١] انظر البقاعي ج ١٤ ص ٥٣.

[٥٢] انظر الألوسي ج ١٩ ص ١٢٦

[٥٣] انظر ابن عطية ج١٤ ص١٢٠، أبو حيان ج٧ ص٤٣٥، ابن كثير مج ٤ ج ٢٤ ص٦٥، البقاعي ج١٧ ص١٨، الطاهر ج٢٤ ص٩٧

جمع النظم القرآني بين الفخامة والعذوبة كما ذكر الخطابي([٥٤]) فهي تجمع بين عظمة تفرد الله تعالى بالألوهية بقدرته وحده على الإحياء والإماتة، ورحمته التي يستمطرها اعترافهم بهذه القدرة واقعة عليهم. كما تتجلى فيما سبق من الآيات، حيث اجتمع في التركيب الواحد عنصرا الترغيب والترهيب([٥٥]).

ومن الملحوظ اقتران الإحياء والإماتة في عدة مواطن بذكر ملك الله للسموات والأرض؛ لأنهما من مقتضيات ملكه تعالى لهما كما في آية الحج السابق ذكرها، حيث ورد قبلها قوله تعالى: (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [الحج: ٦٤]، ومثلها آية الجاثية، حيث ورد بعدها قوله تعالى (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ) [الجاثية: ٢٧]، وفيهما ذكر مفعولا فعلي الإحياء والإماتة.

وجاء ذكر ملك الله تعالى للسموات والأرض في الضرب الثاني من آيات ذكر الإحياء والإماتة الذي حذف فيه مفعول فعلي الإحياء والإماتة في عدد أكبر من المواضع من سابقه، ومع أن الإمام عبد القاهر الجرجاني ذكر الحكمة من هذا الحذف وهو إثبات حكم الفعل للفاعل([٥٦])، إلا أنه من الممكن القول بأن الحكمة من حذف مفعولي الفعلين هنا لشمول تعلقهما بكل ما يقبل الموت والحياة في السموات والأرض؛ لما ذهب إليه عدد من المفسرين من أن لكل كائن حياة خاصة، فذكر بعض المفسرين أن معنى الحياة أي حياة الأجساد وحياة القلوب كما في قول البقاعي:(يُحْيِي وَيُمِيتُ) [البقرة: ٢٥٨] أي بكل معنى فهو الذي أحياكم وأغيركم

---

[٥٤] انظر أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي : رسالة بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز تحقيق محمد خلف الله أحمد، دكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الرابعة، دار المعارف ص ٢٦

[٥٥] انظر ص ١١ وما بعدها من هذا البحث

[٥٦] انظر أبو بكر عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ، دار المدني بجدة، مطبعة المدني بمصر ص ١٥٤-١٥٥

الحياة الجسمانية وخصكم أنتم بالحياة الإيمانية"([٥٧])، في حين ذهب آخرون إلى شمول معنى الحياة لكل شيء مثل الشعراوي الذي قال: إن "الحياة هي ما أودعه الله في كل ذرة في الكون مما تؤدي به مهمتها، ففي ذرة الرمل حياة والجبل فيه حياة، وكل شيء فيه حياة بنص القرآن حيث يقول: (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) [الأنفال:٤٢] إذن: فالحياة مقابلها الهلاك، وفي آيات أخرى يقابل الحياة الموت، فالهلاك هو الموت. فإذا قال الحق سبحانه: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص: ٨٨] إذن: فكل شيء قبل أن يكون هالكًا كان حيًّا، وهكذا نعرف أن الحياة ليست هي الحس والحركة الظاهرتان... فكل شيء في الوجود له حياة تناسبه فلو جئت بمعدن مثلاً وتركته ستجده تأكسد أي حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى فهذه حياة"([٥٨]). والحياة المادية في الكائنات حقيقة، والحياة المعنوية في الجمادات والمعاني من قبيل المجاز.

ومن هذه الآيات التي يسبق فيها ذكر فعلي الإحياء والإماتة بذكر ملك الله تعالى للسموات والأرض، ويحذف فيها متعلقهما قوله (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [الأعراف: ١٥٨]؛ حيث ورد فعلا الإحياء والإماتة بعد ذكر ملكه تعالى للسموات والأرض ووحدانيته كونهما من آيات الملك والوحدانية الظاهرة ليرتب عليه الأمر بالإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول أبو حيان: "وفي حصر الإلهية له نفي الشركة؛ لأن من كان له ملك هذا العالم لا يمكن أن يشركه أحد فهو المختص بالإلهية، وذكر الإحياء والإماتة إذ هما وصفان لا يقدر عليهما إلا الله وهما إشارة إلى الإيجاد لكلّ شيء يريده الإعدام"([٥٩]) وبالاستئناس بقوله: "الإيجاد لكل شيء

---

[٥٧] البقاعي ج ٩ ص٣٤ آية التوبة ١١٦.

[٥٨]– خواطر الشعراوي مجلد٩ ص٥٥٤٦–٥٥٤٧ آية التوبة ١١٦.

[٥٩] أبو حيان ج ٤ ص ٤٠٤.

يريده الإعدام"، وبما ذكره الخطابي من الاستعمال الاستعاري للهلاك([٦٠])، وما ذهب إليه البقاعي والشعراوي في معنى الحياة والموت، وبما ذكره ابن كثير في آية "يس" التي ستأتي دراستها لاحقًا (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى) [يس:١٢] من أن فيه إشارة إلى إحياء الله تعالى لقلوب من يشاء من الكفار([٦١])، أقول: بالاستئناس بكل هذا لعلنا نلمس في إطلاق فعلي الإحياء والإماتة في آية الأعراف بعد ذكر اتباع المؤمنين للنبي عليه السلام في قوله: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ....) [الأعراف: ١٥٧] إشارة– مع دلالة الإحياء والإماتة الحقيقية– إلى إحياء قلوبهم بالإيمان وإحياء المعروف، وإحياء الهداية لمن سيتبع الرسول عليه الصلاة والسلام، وفيه بالمقابل إماتة هذه المعاني في قلوب من كذبه وكفر بالله تعالى.

وجاء في آية التوبة (إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) [التوبة: ١١٦] ذكر الإحياء والإماتة دليلاً على ملك الله تعالى للسموات والأرض، يقول الطاهر" وزيادة جملتي {يُحْيِي وَيُمِيتُ} لتصوير معنى الملك في أتم مظاهره المحسوسة للناس المسلم بينهم أن ذلك من تصرف الله تعالى لا يستطيع أحد دفع ذلك ولا تأخيره"([٦٢])، وما دام كل شيء تحت سلطانه وكل ما في السموات والأرض تحت مشيئته فالأولى بهم أن يؤمنوا به؛ لأنه ليس لهم من دونه ولي ولا نصير، وفيه تهديد لهم.

ولعل في إطلاق فعلي الإحياء والإماتة، مع الدلالة الحقيقية هنا إشارة إلى حياة القلوب بالإيمان وموت قلوب الكافرين من المنافقين والأعراب وموت ثواب أعمالهم (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا) [ التوبة: ٩٧]، وفيه بعد ذلك معنى الحياة والموت لكل ما في السموات والأرض.

---

[٦٠] انظر الخطابي : بيان إعجاز القرآن ص ٤٤.

[٦١] انظر ابن كثير مج ٣ ج ٢٢ ص ٥٢٦.

[٦٢] الطاهر ج ١١ ص ٤٨.

وفي سورة يونس جاء قوله: (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [يونس: ٥٥–٥٦]، في سياق الرد على سؤال الكفار استهزاء عن البعث (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ) [يونس: ٥٣]، وبيان أن الظالم لن يستطيع الافتداء من العذاب بشيء([٦٣])، ودل ملكه تعالى للسموات والأرض على أنه سبحانه "يتصرف في الناس وأحوالهم في الدنيا والآخرة تصرفًا لا يشاركه فيه غيره؛ فتصرفه في أمور السماء شامل للمغيبات كلها، ومنها إظهار الجزاء بدار الثواب ودار العذاب، وتصرفه في أمور الأرض شامل لتصرفه في الناس. ثم أعقب بتحقيق وعده، وأعقب بتجهيل منكريه، وأعقب بالتصريح بالمهم من ذلك وهو الإحياء والإماتة والبعث"([٦٤])، فقصْرُ فعلي الإحياء والإماتة على الله وحده من أكبر الأدلة على تفرده سبحانه بملك ما في السموات والأرض وما يدل عليه من التفرد بالألوهية. وهذان الأمران: الألوهية والبعث هو ما بنيت عليه السورة، فقد قامت السورة من أولها([٦٥]) على ذكر مظاهر ألوهيته تعالى وتكررت هذه المظاهر في ثنايا السورة، وعلى إثبات الحشر([٦٦])، وتكرر ذلك أيضًا في ثناياها([٦٧]).

واستئناسًا بما أشار إليه الرازي من عموم ملك الله تعالى للسموات والأرض لكل "مافي العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور"([٦٨]) فمن الممكن القول بتصرف الله تعالى فيها بالإحياء والإماتة. وفي إثبات الرجوع إلى الله (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

---

[٦٣] اية ٥٤.
[٦٤] الطاهر ج ١١ ص ١٩٩.
[٦٥] آية ٣.
[٦٦] آية ٤.
[٦٧] انظر الرازي ج ١٧ ص ١٦.
[٦٨] الرازي ج ١٧ ص ١١٣.

[البقرة: ٢٤٥] تهديد وتحذير لهؤلاء الكفار، ودعوة لهم للإيمان به سبحانه بعد وضوح الدلائل([٦٩]).

وإذا كان البقاعي قد أكد هنا في آية يونس على معنى الحياة فقط للإنسان حين قال " والحياة معنى يوجب صحة العلم والقدرة ويضاد الموت، وهو يحل بسائر أجزاء الحيوان فيكون بجميعه حيًّا واحدًا، والحي هو الذي يصح أن يكون قادرًا والقادر هو الذي يصح أن يذم ويحمد بما فعل، والموت يضاد الحياة على البيئة الحيوانية وليس كذلك الجمادية" ([٧٠]) إلا أنه أشار في موضع سابق إلى المعنى المجازي بإحياء الإيمان، وفي آية الحديد: (يُحْيِي وَيُمِيتُ) [الحديد: ٢] ذكر معنى إثبات صفة الإحياء للخلق دون تعلقها بمتعلق خاص وهو قريب مما يعرف عند البلاغيين بتنزيل المتعدي منزلة اللازم فـ "يحيي أي: له صفة الإحياء، فيحيي ما يشاء من الخلق بأن يوجده على صفة الأحياء كيف شاء في أطوار يتقلبها كيف شاء وكيف يشاء ومما يشاء"([٧١])، وقال الرازي:" ليس المراد من تخصيص الإحياء والإماتة بزمان معين وبأشخاص معينين؛ بل معناه أنه هو القادر على خلق الحياة والموت كما قال في سورة الملك: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) [ الملك: ٢]، والمقصود منه كونه سبحانه هو المنفرد بإيجاد هاتين الماهيتين على الإطلاق، لا يمنعه عنها مانع ولا يرده عنها راد"([٧٢])، وهما يلتقيان هنا مع رأي الجرجاني في الحكمة من حذف المفعول([٧٣])، ولا يمنع هذا من وجود مفعول يقع عليه فعلا الإحياء والإماتة، وهو كل ما في السموات والأرض.

---

[٦٩] انظر الزمخشري ج ٢ ص ٢٤١.

[٧٠]- البقاعي ج ٩ ص ١٤٣.

[٧١] البقاعي ج١٩ ص ٢٥٤.

[٧٢] الرازي ج ٢٩ ص ٢٠٩ آية الحديد ٢.

[٧٣] انظر الجرجاني : دلائل الإعجاز ص ١٥٤-١٥٥.

وفي آية الحديد: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الحديد: ٢] ذُكر فعلا الإحياء والإماتة في سياق ملكه تعالى السموات والأرض؛ لأنهما " مما يشتمل عليه معنى ملك السموات والأرض؛ لأنهما من أحوال ما عليهما. وتخصيص هذين بالذكر للاهتمام بهما لدلالتهما على دقيق الحكمة في التصرف في السماء والأرض، ولظهور هذين الفعلين لا يستطيع المخلوق ادعاء أن له عملاً فيهما، وللتذكير بدليل إمكان البعث الذي جحده المشركون" ([٧٤])، فتفرد الله تعالى بالقدرة على الإحياء والإماتة دليل على الألوهية، وفيه إثبات للبعث الذي ينكره الكفار. ولعل إطلاق فعلي الإحياء والإماتة بعد ذكر تسبيح ما في السموات والأرض لله وملكه تعالى لهما يشير إلى موت وحياة كل ما فيهما وما بينهما مما نعلم ومالا نعلم مما يسبح له.

وقريب من هذا السياق في ربط القدرة على الإحياء والإماتة بملك السموات والأرض قوله: (إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) [الدخان: ٨]، بعد ذكر ربوبيته للسموات والأرض بقوله: (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) [الدخان: ٧] التي تبين أنه مالك الملك كله ([٧٥])، وقوله (يُحْيِي وَيُمِيتُ) إثبات لذلك "لأن ذلك من أجل ما فيهما من التدبير، وهو تنبيه على تمام دليل الوحدانية، لأنه لا شيء ممن فيهما يبقى ليسند التدبير إليه"([٧٦]) ففعلا الإحياء والإماتة من مقتضيات الألوهية وهما يقعان على الأحياء، وهذا يستلزم الإقرار بالبعث عن طريق القياس أو الأدلة، ويقعان أيضا على المعاني فتحيا قلوب المؤمنين بالهداية وتموت قلوب من فضل الكفر على الإيمان. والآية جاءت في سياق آيات ذكر فيها القرآن الكريم، ولعل مما يدخل فيه- أي الإطلاق- إحياء البركة في ليلة نزول القرآن، وإحياء الرحمة التي أرسلها الله تعالى لعباده (رَحْمَةً مِنْ

---

٢- الطاهر ج٢٧ ص٣٥٩، وانظر أبو حيان ج ٨ ص ٢١٦.

[٧٥] انظر البقاعي ج ١٨ ص ٩.

[٧٦] لبقاعي ج١٨ ص ١١.

رَبِّكَ) [ القصص: ٤٦]، وفي المقابل يكتب الموت على القلوب التي لا تؤمن بالقرآن ولا تهتدي بهديه.

وقريب من هذا السياق أيضًا ذكر الإحياء والإماتة ضمن مجموعة من آيات ألوهية الله تعالى وكمال قدرته في الكون مما يدل على كمال ملكه له، ومن ذلك قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [المؤمنون: ٨٠]، الذي سبقه إنشاء السمع والأبصار والأفئدة، والذرء في الأرض، وأعقبه ذكر اختلاف الليل والنهار، وكل هذه الآيات دلائل انفراد بالألوهية والقدرة، ويدخل فيها القدرة على البعث. يقول ابن عطية في الحكمة من ذكر هذه الآيات: "ابتدأ تعالى بتعديد نعم في نفس تعديدها استدلال بها على عظيم قدرته وأنها لا يعزب عنها أمر البعث ولا يعظم"([٧٧]). وهذه الآيات والأدلة على الألوهية والبعث توسطت بين ذكر تكذيب الكافرين بآيات الله تعالى([٧٨])، وبالبعث([٧٩]) قبلها، وتصريحهم بهذا التكذيب([٨٠]) بعدها مما يدل على إصرارهم عليه، ولذلك حاجهم القرآن بما هم مقرون به من كونه تعالى رب الأرض والسماء ورب العرش العظيم، وبيده ملكوت كل شيء([٨١]).

ومثل آية المؤمنون في ذكر الإحياء والإماتة ضمن مجموعة من آيات ألوهية الله تعالى وكمال قدرته قوله: (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [غافر: ٦٨]، حيث ورد مع مجموعة من أدلة إلهية الله تعالى من خلق السموات والأرض، وجعل الليل سكنًا والنهار مبصرًا والأرض قرارًا والسماء بناءً، ومن حسن تصوير خلق الإنسان، ومن كونه سبحانه الحي الحياة الكاملة التي تليق

---

[٧٧] ابن عطية ج ١١ ص ٢٤٧، وانظر أبو حيان ج ٦ ص ٣٨٥، الرازي ج ٢٣ ص ١١٤.

[٧٨] آية ٦٦-٦٧.

[٧٩] آية ٧٤.

[٨٠] آية ٨١-٨٢.

[٨١] آية ٨٤-٨٩.

بجلاله، ومن كونه مقدرًا مراحل خلق الإنسان من التراب إلى الوفاة، وفي هذا يقول الرازي إنه " تعالى لما أمر بالدعاء، فكأنه قيل: الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقًا بحصول المعرفة، فما الدليل على وجود الإله القادر، وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته"([٨٢]) فهذه الآيات إثبات لألوهيته ولقدرته المطلقة على الخلق والتقدير وتدبير الكون وعلى البعث الذي كانوا ينكرونه، وجاء قوله (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) [غافر: ٦٨] دليلاً على ذلك، وختمت الآية بقوله: (فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [غافر:٦٨] للدلالة على تمام إرادته ونفاذها فيما شاء من أمر القيامة وغيرها.

و مثله في مجيء فعلي الإحياء والإماتة مع مجموعة من آيات ألوهية الله تعالى وكمال قدرته وتمام سلطانه وحده على الكون قوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) [النجم: ٤٤] الذي ورد ضمن آيات الألوهية والقدرة ابتداء من قوله تعالى: (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ... وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى) [النجم: ٤٢-٥٣]، التي صرح فيها بالقدرة على البعث. ودل ضمير الفصل (هو) في قوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) على أنه وحده دون غيره المختص بالإحياء والإماتة، فالقدرة على إيجاد الضدين الموت والحياة من أعظم دلالات كمال القدرة والعلم، وهي من خصوصيات الألوهية الحقة([٨٣]). ولعل حذف متعلق الفعلين؛ ليفيد وقوعهما على كل ما يقبل الموت والحياة من الكائنات ما علمنا منها وما لم نعلم.

ولعل مجيء فعلي الإحياء والإماتة في آية النجم هنا ماضيين هو للدلالة على تحققهما أمام من من كفر وتولى، في حين جاءا في الآيات السابقات فعلاً مضارعًا دالاً على التجدد والاستمرار([٨٤]) إيماءً إلى تكرر حدوثهما، واستحضارًا لصورهما في ذهن المخاطب مما يعرفه من إحياء النطف والأرض؛ تحذيرًا له من سوء العاقبة.

---

[٨٢] الرازي ج ٢٧ ص ٨١ وانظر الطاهر ج ٢٤ ص ١٨٢ وما بعدها.

[٨٣] انظر البقاعي ج ١٩ ص ٧٤.

[٨٤] انظر البقاعي ج ١٨ ص ١٠١ آية الجاثية ٢٦، ج ١٩ص٢٥٥ تفسير آية الحديد (٢).

وورد ذكر الإحياء والإماتة دليلاً على الألوهية وكمال قدرة الله تعالى في سياق مختلف في قوله تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [آل عمران: ١٥٦]، الذي رد وهْم من ظنوا أن عدم خروج إخوانهم للحرب سيبقيهم أحياء فأجابتهم الآية: (وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ)، يقول الألوسي:" أي والله هو المؤثر الحقيقي في الحياة والممات وحده لا الإقامة أو السفر، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما موارد الحتوف ويميت المقيم والقاعد وإن كانا تحت ظلال النعيم، وليس المراد أنه تعالى يوجد الحياة والممات وإن كان هو الظاهر؛ لأن الكلام ليس فيه ولا يحصل به الرد وإنما الكلام في إحداث ما يؤثرهما" (٨٥)، ثم ذكرتهم بختامها بأنه عالم بكل ما يفعلون ومجازيهم عليه(٨٦).

وفي سياق آخر جاء ذكر الإحياء والإماتة على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام دليلاً على وجود الله تعالى ووحدانيته في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [البقرة: ٢٥٨]، ودليل إبراهيم عليه السلام في غاية الصحة كما قال الإمام الرازي، وذلك أنه "لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بواسطة أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد من القادرين، والإحياء والإماتة كذلك؛ لأن الخلق عاجزون عنهما"(٨٧). ولذلك جاء بذكر الموصول الذي يدل على معرفة النمروذ بمضمون الصلة وهو ما يثبت تعنته في الإذعان للحق.

---

٨٥ الألوسي ج ج٤ ص ٤٣٥.

٨٦ انظر ابن جرير ج ٤ ص ٥٠٣.

٨٧ الرازي ج ٧ ص ٢٣.

وإذا كان إسناد فعلي الإحياء والإماتة فيما سبق لضمير الغائب إثباتًا لكمال قدرة الله تعالى على مقتضيات الألوهية، فإن في إسنادهما لضمير المتكلم الدال على العظمة في قوله: (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) [الحجر: ٢٣] وقوله: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) [ق: ٤٣]، مزيدا من تعظيم تلك القدرة، مع اختلاف سياقي الآيتين، فآية الحجر جاءت ضمن دلائل التوحيد بدءا من قوله تعالى: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ.... وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) [الحجر:١٦-٢٣]، ويدخل فيها ضمنًا البعث يقول الرازي: " اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهة منكري النبوة وكان قد ثبت أن القول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد أتبعه تعالى بدلائل التوحيد"(٨٨)، وآية (ق) جاءت في سياق ذكر البعث الذي سماه البقاعي الإحياء الأعظم حيث قال: "ولما بنيت دعائم القدرة، ودقت بشائر النصرة، وختم بما يصدق على البعث الذي هو الإحياء الأعظم دالاً بما هو مشاهد من أفعاله وأكده لإنكارهم البعث فقال: "أنا" بما لنا من العظمة "نحن" خاصة نحيي ونميت"(٨٩).

وتتضافر التوكيدات في آية الحجر من استعمال الأداة" إن"، وضمير الفصل متصلاً بلام التوكيد" لنحن" مما يفيد تخصيص هذه القدرة بالله تعالى، ويرى الطاهر أن استعمال هذه التوكيدات تنزيلاً للكفار منزلة منكري قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة؛ لأنهم موقنون أنه لا يقدر عليهما إلا الله تعالى(٩٠)، والذي ينكرونه هو الإحياء الثاني للبعث.

ومما يلحظ مجيء الأفعال من أول السورة بالإسناد لضمائر العظمة، وفي محاولة معرفة الحكمة من استعمال ضمير العظمة وتوالي التوكيدات، وبالتأمل فيما قبل هذه الآيات نجد درجة من الكفر والعناد عند الكافرين كبيرة، فهم يستهزئون

---

٨٨ الرازي ج ١٩ ص ١٦٨ وانظر البقاعي ج ١١ ص ٤٠.

٨٩ البقاعي ج ١٨ ص ٤٤١.

٩٠ انظر الطاهر ج١٤ ص ٣٩.

بالرسول صلى الله عليه وسلم ويتهمونه بالجنون، ويطلبون من الآيات ما يظهر عنادهم وتمردهم مثل طلبهم نزول الملائكة؛ بل إن الآيات تصف بلوغهم فيه المدى الأكبر، وهو لو أن الله تعالى فتح لهم بابًا إلى السماء تصديقًا لرسوله وعرجوا فيه لقالوا إن هذا سحر وكذبوه؛ ولعل لهذه الدرجة الطاغية من الكبر والعناد، ولذكر كبر إبليس وتأبيه على طاعة ربه، ولذكر قصة أصحاب الحجر وتكبرهم على عبادة الله جاءت آيات السورة بضمير العظمة، ومنها آيات ألوهية الله تعالى وكمال قدرته في السموات والأرض وما بينهما.

وإطلاق فعلي الإحياء والإماتة كما ذكر البقاعي في آية الحجر ليشمل معنى الإحياء " من الحيوان بروح البدن، ومن الروح بالمعارف، ومن النبات بالنمو، وإن كان أحدهما حقيقة والآخر مجازًا إلا أن الجمع بينهما جائز و(وَنُمِيتُ) أي من هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء"([٩١])، ويزيده سعة الشيخ الشعراوي ليشمل كل شيء فيقول:" فهو يحدثنا عن أمرين يعتوران حياة كل موجود هما الحياة والموت، وكلاهما يجري على كل الكائنات فكل شيء له مدة يحياها وأجل يقضيه، وكل شيء يبدأ مهمة في الحياة فهو يولد وكل شيء ينهي مهمته في الحياة بحسب ما قدر الله له فهو يموت"([٩٢]).

أما آية (ق) فالظاهر في دلالة الإحياء فيها إحياء من أماتهم الله تعالى في الدنيا يوم البعث لتوسط الآية بين قوله: (ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) [ق: ٤٢]، وقوله: (يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ) [ق: ٤٤]، ولا يمنع دخول الإحياء الأول كما أشار البقاعي([٩٣])، ولا يمنع دخول معنى الإحياء والإماتة لكل ما يقبلهما مما خلق الله تعالى، ولعل الحكمة من إسناد الأفعال هنا لضمير العظمة ما تخبر

[٩١] البقاعي ج ١١ ص ٤٠.
[٩٢] الشعراوي ج ١٢ ص ٧٦٨٠.
[٩٣] انظر البقاعي ج ١٨ ص ٤٤١.

عنه من شأن البعث الذي يدل على عظمة الله تعالى وكمال قدرته، ويتكرر ورود إسناد الأفعال لضمير العظمة في السورة مثل سورة الحجر.

وجاء مفعول الفعلين ضميرًا للغائب في سياق إحياء الله تعالى لبعض خلقه بعد إماتتهم في الدنيا دليلاً على ألوهيته وكمال قدرته، نجد ذلك في قصة إحياء الله تعالى لرجل أماته فيها ثم أحياه في قوله تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: ٢٥٩].

ويلحظ مجيء لفظ البعث بدل الإحياء الثاني، وفي الحكمة من ذلك يقول الرازي: "لأن قوله (ثُمَّ بَعَثَهُ) يدل على أنه عاد كما كان حيًا عاقلًا فهمًا مستعدًا للنظر والاستدلال في المعارف الإلهية"([٩٤])، ولعل الحكمة من إسناد الفعلين لضمير الغائب هي كونهما يحكيان قصة ما حدث، ولعل فيها شيئًا من إعراض عن حضور صاحب القصة لاستبعاده إحياء الأرض بعد موتها.

وقريب منه في الحكمة من البعث في الدنيا وهي الإقدام على الطاعة([٩٥])، وفي كون الضمير في الفعلين للغائب قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) [البقرة: ٢٤٣]؛ حيث أماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليعلموا أن الله وحده الإله الحق القادر على الإحياء والإماتة، وأن العصمة من إدراك الموت لا يكون بالهروب من الديار. ولعل في نصب فعلي الإماتة والإحياء لضمير

[٩٤] الرازي ج٧ ص ٣٢، وانظر أبو السعود ج١ ص ٢٥٣ ، الألوسي ج٣ ص ٣٠.
[٩٥] انظر الرازي ج ٦ ص ١٦١.

الغائب نفس الحكمة في آية المار على القرية، وهي أن الآية تحكي أمرًا قد حدث، ولعدم ملاءمة حضور من خرج من دياره فارًّا من قدر الله وهو الموت في الخطاب.

وقريب منهما في الحكمة من ذكر البعث في الدنيا قوله تعالى وصفًا لما وقع لقوم موسى بعد أن ماتوا بالصاعقة حين طلبوا رؤية الله تعالى جهرة: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ* ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [البقرة: ٥٥- ٥٦]، فورد ذكر الإحياء بعد الموت دليلا على كمال قدرة الله، وأوثر لفظ (بَعَثْنَاكُمْ) على أحييناكم كما ذكر المفسرون لإفادة معنى إعادتهم للدنيا عقلاء قادرين على العمل؛ ليتمكنوا من الإيمان والعمل الصالح([٩٦]). غير أن المفعول هنا ضمير للمخاطب ولعل في ذلك تقريرًا لهم بفضل الله عليهم بإشهادهم آية بعثهم بعد موتهم، وفيه ملمح توبيخ كما سبق بالمواجهة لعدم قيامهم بحق الله تعالى في الاعتراف بالنعمة والإيمان بالألوهية والبعث.

والملحوظ أن الإحياء في الدنيا جاء في الآيات الثلاث بأداة العطف ثم، وذلك " لمّا كان إحياؤهم من ذلك في الدار في غاية البعد وخرق العادة"([٩٧]).

## القسم الثاني

## إثبات القدرة على البعث (إحياء الموتى)

جاء ذكر فعلي الإحياء والإماتة في هذا القسم إثباتا للقدرة على البعث بجعل الموتى مفعولاً لفعل الإحياء: (يُحْيِيَ الْمَوْتَى) مما يؤكد وقوعه. ولكونه تقريرًا وتأكيدًا للبعث فقد سبق في أغلب السياقات بما يهيء له من دلائل، مثل خلق الإنسان، وإخراج النبات من الأرض، وخلق السموات والأرض، وإحياء ميت في الدنيا، وجاء إثباته ابتداء في بعض المواضع.

---

[٩٦] انظر الرازي ج٣ ص٨٦ ، البقاعي ج١ ص ٣٨٣-٢٨٤.

[٩٧] البقاعي ج١ ص ٣٨٢.

فمما سبق فيه إحياء الموتى بذكر خلق الإنسان قوله تعالى: (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى* أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [القيامة: ٣٧– ٤٠]؛ حيث ذكر القرآن الإنسان بأصل خلقه وإنشاء الله تعالى له من العدم، نطفة ثم علقة ثم إنسانًا مستوي الخلقة على أحسن ما يكون احتجاجًا على البعث، فمن قدر على الإنشاء من العدم قادر بحكم القياس أن يعيد خلقه مرة أخرى بعد موته، ولذلك جاء قوله تعالى: (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) حملاً للمخاطب على الإقرار بالبعث حين يتدبر، وفي ذلك يقول الطاهر: " والاستفهام إنكار للمنفي إنكارَ تقرير بالإثبات وهذا غالب استعمال الاستفهام التقريري أن يقع على نفي ما يراد إثباته؛ ليكون ذلك كالتوسعة على المقرَّر إن أراد إنكارًا كناية عن ثقة المتكلم بأن المخاطب لا يستطيع الإنكار" ([٩٨])، وفي الآية توبيخ([٩٩]) لمنكري البعث.

ومما استدل به على إحياء الموتى إخراج النبات في قوله تعالى: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الروم: ٥٠]

يقول أبو حيان في تقرير هذا الاستدلال:" القادر على إحياء الأرض بعد موتها، هو الذي يحيي الناس بعد موتهم. وهذا الإخبار على جهة القياس في البعث " ([١٠٠])، ويؤكده مجيء حرف (إن) في قوله (إِنَّ ذَلِكَ) الذي " يفيد مع تقرير الخبر زيادة معنى فاء التسبب، كقول بشار:

**بَكِّرَا صاحِبَيَّ قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير**

---

[٩٨] الطاهر ج ٢٩ ص ٣٦٨.

[٩٩] انظر ابن عطية ج ١٦ ص ١٨١.

[١٠٠] أبو حيان ج ٧ ص ١٧٤.

إذ التقدير: فالنجاح في التبكير، كما تقرر غير مرة"[١٠١]، وأشار بعض المفسرين [١٠٢] إلى تشابه إخراج النبات وإخراج الموتى بنزول المطر؛ لأن الله تعالى تعالى ينزل مطرًا على الأرض لإخراج الناس للبعث. ولأهمية البعث وشدة إنكار المشركين له صيغ بما يفيد تقريره وتأكيده، فابتدئ في قوله (إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ) بإن التي تفيد التوكيد، وورد اسم الإشارة (ذلك) العائد إلى " إلى اسم الله تعالى بما أجري عليه من الإخبار بإحياء الأرض بعد موتها ليفيد اسم الإشارة معنى أنه جدير بما يرد بعده من الخبر عن المشار إليه، فالمعنى أن الله الذي يحيي الأرض بعد موتها لمحيي الموتى، تقريبًا لتصور البعث " [١٠٣]، ودل كونه للبعيد على تعظيم شأن الله تعالى وكمال قدرته [١٠٤]. واستعمال اسم الفاعل في (لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ) دون الفعل يحيي لتحققه، يقول الرازي: "لما ذكر الدلائل قال (لمحيي) باللام المؤكدة وباسم الفاعل، فإن الإنسان إذا قال إن الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله إنه معطيك؛ لأن الثاني يفيد أنه أعطاك، فكان وهو معط متصفًا بالعطاء"[١٠٥]، وقريب منه في الاستدلال على إحياء الموتى بإحياء الأرض قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [فصلت: ٣٩]؛ حيث أفاد اهتزاز الأرض وربوها بالنبات الإحياء بعد الجدب والقحط وشكل دليلاً تقريريًا على إثبات البعث، وفي وصف ذلك الإحياء والموت المستعارين لخروج النبات وقحط الأرض يقول الزمخشري: "الخشوع: التذلل والتصاغر فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا

---

[١٠١] الطاهر ج ٢١ ص ١٢٤.

[١٠٢] انظر على سبيل المثال ابن جرير ج ٢٤ ص ٨١٨ آية فصلت ٣٩.

[١٠٣] الطاهر ج٢١ ص١٢٤.

[١٠٤] انظر البقاعي ج ١٥ ص ١٢٢، أبو السعودج ٧ ص ٦٥، الشوكاني ج ٢١ ص ١١٣٨، الألوسي ج ٢١ ص ٧١، الطاهر ج ٢١ ص ١٢٤.

[١٠٥] الرازي ج ١٣ ص ١٣٣، وانظر البقاعي ج ١٥ ص ١٢٢ .

نبات فيها كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) [الحج: ٥]، وهو خلال وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات؛ كأنها بمنزلة المختال في زيه وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة"([١٠٦]) وفي إيثار فعل الرؤية (تَرَى) ما يشير إلى الجمع بين البصر والبصيرة في الوصول للحق ومعرفة كيفية الاستدلال([١٠٧]). وفي استعمال لفظ الموصول في قوله: (إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا) [فصلت: ٣٩] دلالة على معرفتهم بأن الله تعالى هو الذي أحياها وتعليل للخبر([١٠٨])، أي لما قدر سبحانه على إحيائها فهو قادر على إحياء الموتى. وذكر الإحياء مثل سابقه باستعمال اسم الفاعل ليفيد اتصاف الله تعالى بالقدرة على الإحياء اتصافًا ثابتًا مؤكدًا.

و مما اجتمع فيه الاستدلال بالآيتين: آية خلق الإنسان وآية الإنبات على إحياء الموتى قوله: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ* وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ* كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ* يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الحج: ١– ٦]، فالآية ضمت في الاستدلال على

---

[١٠٦] الزمخشري ج ٣ ص ٤٥٤ وانظر ابن عطية ج ١٤ ص ١٨٩، البقاعي ج ١٧ ص ١٩٧، الألوسي ج ٢٤ ص ٥٠٣، الطاهر ج ٢٤ ص ٣٠٢.

[١٠٧] انظر البقاعي ج ١ ص١٩٦.

[١٠٨]– انظر الطاهر ج ٢٤ ص ٣٠٣.

إحياء الله تعالى للموتى إثبات قدرته على خلق الإنسان وإثبات قدرته على إحياء الأرض بالنبات بعد موتها بالجدوبة واليبس، والإشارة بـ (ذَلِكَ) "للإيذانِ ببُعدِ منزلتِه في الكمالِ"([١٠٩])، وفي ذكر الحكمة من الجمع بينهما للدلالة على البعث يرى ابن عطية أن المتأمل فيها يجوز في العقل البعثة من القبور، فإذا ورد خبر الشرع بوقوعه وجب التصديق به ([١١٠])، في حين يرى الرازي أن فيها صفتين من صفات الله تعالى الدالة على إمكان البعث وهي القدرة والعلم "ولذلك فإن الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث في كتابه ذكر معه كونه قادرًا عالمًا"([١١١]) وهو ما سيتكرر في أكثر آيات هذا القسم.

وقد أجمع المفسرون على أن لفظ (هَامِدَةً) هنا، و(خاشعة) في آية فصلت استعارتان لجدب الأرض، والتفت بعضهم إلى ذكر الفرق بينهما، فذكر البقاعي عن لفظ (خاشعة) "لما كان السياق للوحدانية عبّر بما هو أقرب إلى حال العابد، بخلاف ما مضى في الحج"([١١٢])، وعن (هَامِدَةً) "ولما كان في سياق البعث، عبر بما هو أقرب إلى الموت فقال (هَامِدَةً) أي يابسة مطمئنة ساكنة سكون الميت"([١١٣]). وأضاف صاحب الظلال أن آية فصلت التي كان السياق فيها للعبادة والخشوع لم تزد على ذكر الاهتزاز والربو، في حين زادت آية الحج إنبات كل زوج بهيج([١١٤]).

وجاء الاستدلال بخلق السموات والأرض على إثبات قدرة الله تعالى على إحياء الموتى في قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الأحقاف: ٣٣]،

---

[١٠٩] أبو السعود ج ٧ ص ٩٥ وانظر الألوسي ج ١٧ ص ١٥٣.

[١١٠] انظر ابن عطية ج ١١ ص ١٧٧، أبو حيان ج ٦ ص ٣٢٧.

[١١١] الرازي ج ٢٣ ص ١٠.

٤– البقاعي ج١٧ ص ١٦٩.

[١١٣] البقاعي ج ١٣ ص ١٢.

–[١١٤]انظر سيد قطب : التصوير الفني في القرآن، الطبعة ١٦، ١٤٢٣ هـ، دار الشروق / القاهرة ص ١١٨.

وذكر المفسرون هنا أن الرؤية تجمع بين رؤية البصر ورؤيا البصيرة في فهم الاستدلال والوصول للحقيقة التي يتكرونها وهي البعث([١١٥]). وهمزة الاستفهام هنا للإنكار([١١٦]) "والإنكار منصب على إنكارهم البعث مع أن برهانه ظاهر"([١١٧])، فأقيمت الحجة عليهم بما اعترفوا به وهو خلق الله تعالى للسموات والأرض على طريق القياس، فإن من خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بعد أن خلقهم ثم أماتهم([١١٨])، وفيه توبيخ لهم وتعنيف لمن ينكر البعث مع وضوح أدلته([١١٩]). ولما كان هذا الأمر واضحًا كل الوضوح جاء الجواب عنه بقوله (بلى) "والمعنى: بلى رأوا ذلك أن لو نفعهم ووقع في قلوبهم"([١٢٠]).

وجاء الاستدلال بإحياء الموتى في الحياة الدنيا على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى في الآخرة في آية البقرة: (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [البقرة: ٧٣]، فقد أثبتت القدرة الإلهية على الإحياء يوم البعث بإحياء قتيل بني إسرائيل بضربه بقطعة من بقرة ميتة ليحيا. وفي الإشارة بـ(كَذَلِكَ) دلالة على عظمة هذه القدرة. ولعل فعل الرؤية هنا (يُرِيكُمْ) يلفت إلى ضرورة اجتماع البصر والبصيرة في الوصول للحق، ولذلك ختمت الآية بقوله (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

ويحمل سؤال إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ

---

[١١٥] انظر ابن جرير ج ٢٦ ص ١٧٥، ابن عطية ج ١٥ ص ٤٢، أبو السعود ج ٨ ص ٨٩، الشوكاني ج ٢٦ ص ١٣٦٩، الألوسي ج ٢٦ ص ٢٥٦.

[١١٦] انظر البقاعي ج ١٨ ص ١٨٧، أبو السعود ج ٨ ص ٨٩، الشوكاني ج ٢٦ ص ١٣٦٣، الألوسي ج ٢٦ ص ٢٥٦، الطاهر ج ٢٦ ص ٦٣.

[١١٧] د.محمد أبو موسى :آل حميم، الجاثية –الأحقاف ص ٥٨٦.

[١١٨] انظر الرازي ج ٢٨ ص ٣٤، الألوسي ج ٢٦ ص ٢٥٧.

[١١٩] انظر د.محمد أبو موسى ال حم، الجاثية –الأحقاف ص ٥٨٦-٥٨٧.

[١٢٠] ابن عطية ج ١٥ ص ٤٣.

الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: ٢٦٠] عن إحياء الموتى بلفظ (كَيْفَ) تقريرًا لوقوعه؛ لأن السؤال عن الكيفية يتضمن التحقق من الوقوع(١٢١)، فحين نقول: كيف بنيت الدار؟ أو كيف صنعت الثوب؟ فالمعنى أن هناك دارًا مبنية نسأل عن كيفية بنائها، وهناك ثوب مصنوع نسأل عن كيفيه صنعه، وأمر الإحياء في يقين إبراهيم عليه السلام وفي سؤاله لربه محقق الوقوع والاستفهام فقط عن كيفية وقوعه للوصول لعين اليقين. وفي معنى (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) يقول ابن عطية: "أن يسكن فكره في الشيء المعتقد"(١٢٢)، ويبين أن الاطمئنان " درجة زائدة على الإيمان وهي أن لا يبقى على النفس في يقينها مطلب يحركها إلى تحصيله"(١٢٣).

وجاء تقرير إحياء الموتى ابتداء دون أن يسبقه أمثلة استدلال في قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) [يس: ١٢] الذي جاء مثبتًا للحشر بعد ذكر أصول العقيدة من التوحيد والرسالة، وفيه تبشير للمؤمنين وتهديد للمنكرين؛ لما في الكتابة من معنى الجزاء على سبيل الكناية(١٢٤). ولا يخفى ما في استعمال ضمير العظمة من تعظيم قدرة الله تعالى في الإحياء، وما في ضمير الفصل (نحن) من معنى القصر.

وقد حفلت (يس) بذكر البعث في مواقع متعددة(١٢٥)، ومنها هذا الموضع، ومنها من الباب الذي نحن فيه وهو إحياء الموتى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)

---

١٢١- انظر ابن عطية ج٢ ص٣٠٣، القرطبي ج٣ ص٢٩٩ ، أبو حيان ج٢ ص٣٠٨ ، الألوسي ج٣ ص ٣٦ ، الشعراوي ج٢ ص ١١٣٩.

١٢٢ ابن عطية ج ١ ص ٣٥٣.

١٢٣ ابن عطية ج١٦ ص٣٠١ ( الفجر ٢٨ ).

١٢٤ انظر أبو حيان ج ٧ص٣١٢، الألوسي ج٢٢ ص ٢١٩، الطاهر ج٢٢ ص ٣٥٥.

١٢٥ آية ٢٢، آية ٣٢.

[يس: ٧٨– ٧٩]، فالآية عجبت من جحود هذا الكافر ومفاجأته لمن خلقه من نطفة بالخصومة(١٢٦) بدلالة إذا الفجائية (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) [سورة يس: ٧٧]، وذكرت إنكاره الإحياء (قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) وفي قوله (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ) معنى الإنكار والاستحالة، ولكن القرآن أجابه على طريقة أسلوب الحكيم " فأجيب جواب مَن هو متطلبٌ علمًا. فقيل له: (يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)، فلذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسندًا للمُحيي"(١٢٧)، وإثبات قدرة من خلقه وخلق العظام على إعادة نشأتها. ويصح أن يكون الجواب "إبطالًا للنفي المراد من الاستفهام الإنكاري... فالموصول هنا إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو (يُحْيِيهَا) أي يحييها؛ لأنه أنشأها أول مرة فهو قادر على إنشائها مرة ثانية كما أنشأها أول مرة"(١٢٨) وفي استعمال الاسم الموصول دلالة على معرفته بمضمون الصلة ومن ثم يصح قياس الإحياء الثاني على الإنشاء الأول، ثم ختمت الآية بذكر كمال القدرة بكمال العلم في قوله تعالى (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)، فذكر هاتين الصفتين يكون في سياقات تقرير البعث، كما قال الرازي؛ لأن بهما يحاج الخصم " ولذلك فإن الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث في كتابه ذكر معه كونه قادرًا عالمًا كقوله: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) [يس: ٧٩]، فقوله: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا) بيان للقدرة وقوله: (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) بيان للعلم والله أعلم"(١٢٩).

وأثبتت القدرة الإلهية على إحياء الموتى في الدنيا بوقوعها معجزة على يد نبي الله عيسى عليه السلام في قوله: (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ

---

١٢٦ انظر البقاعي ج ١٦ ص ١٧٧، أبو السعود ج ٧ ص ١٨١، الشوكاني ج ٢٣ ص ١٢٣٣، الألوسي ج ٢٣ ص ٧١ .

١٢٧ الطاهر بن عاشور ج٢٣ ص٧٥.

١٢٨ الطاهر ج ٢٣ ص ٧٦، وانظر البقاعي ج ١٦ ص ١٧٩.

١٢٩ الرازي ج ٢٣ ص ١٠ تفسير اية الحج ٦.

الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [آل عمران: ٤٩]، وهو ما نص عليه عيسى عليه السلام بقوله (بِإِذْنِ اللَّهِ) فهو إثبات لإحياء الله تعالى وحده للموتى، لا دخل للنبي فيه بأمر ولا تكوين.

## القسم الثالث

## آيات إحياء الأرض بعد موتها (استدلال وامتنان)

جاءت آيات هذا القسم بذكر إحياء الأرض بعد موتها استدلالاً على البعث فكثيرًا " ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها"([١٣٠])، مدمجة الاستدلال بالامتنان على العباد بهذه النعمة.

وهي على ضربين: ضرب دمج فيه الامتنان بإحياء الأرض بعد موتها في الاستدلال على الألوهية، وفهم منه ضمنا الاستدلال على البعث، وضرب صرح في هذا الدمج بالاستدلال على البعث، فمن الأول: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [البقرة: ١٦٤]، الذي جاء عقب قوله: (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) [البقرة: ١٦٣]؛ ليذكر دلائل على الألوهية والوحدانية، ويدخل فيها الاستدلال على البعث، وأدمج في هذه الدلائل ومنها إحياء الأرض بعد موتها الامتنان بكونها نعما([١٣١]).

وفي إحياء الأرض وموتها استعاريتان: الأولى لعمارة الأرض وحركتها بالنبات والثمار، والثانية ليبسها وقحطها وجدوبتها، يقول الرازي:"واعلم أن وصفه تعالى ذلك

---

[١٣٠] ابن كثير مج ٣ ج ٢٢ ص ٥١١ تفسير آية فاطر ٩.

[١٣١] انظر ابن عطية ج ٢ ص ٣٢ وما بعدها، القرطبي ج ٢ ص ١٩٢ وما بعدها، البقاعي ج٢ ص ٢٨٧، الطاهر ج ٢ ص٧٦ وما بعدها.

بالإحياء بعد الموت مجاز؛ لأن الحياة لا تصح إلا[١٣٢] على من يدرك ويصح أن يعلم، وكذلك الموت، إلا أن الجسم إذا صار حيًا حصل فيه أنواع من الحسن والنضرة والبهاء، والنشور والنماء، فأطلق لفظ الحياة على حصول هذه الأشياء، وهذا من فصيح الكلام الذي على اختصاره يجمع المعاني الكثيرة"[١٣٣] وجعلها أبو حيان هنا في آية البقرة كناية فقال: "وكنى بالإحياء عن ظهور ما أودع فيها من النبات، وبالموت عن استقرار ذلك فيها وعدم ظهوره. وهما كنايتان غريبتان؛ لأن ما برز منها بالمطر جعل تعالى فيه القوة الغاذية والنامية والمحركة، وما لم يظهر فهو كامن فيها، كأنه دفين فيها، وهي له قبر"[١٣٤]، وأغلب المفسرين على أنه استعارة[١٣٥]؛ بل إن في تشبيه أبي حيان نفسه للأرض الجدباء بالقبر إشارة إلى الاستعارة، وهو الأشهر. ورأى الطاهر في فعل الإحياء احتمال دلالتين مجازيتين: الأولى استعارة والثانية مجازًا فقال:" وأطلقت الحياة على تحرك القوى النامية من الأرض وهي قوة النبات استعارة... وإذا جعلنا الحياة حقيقة في ظهور قوى النماء وجعلنا النبات يوصف بالحياة حقيقة وبالموت فقوله: (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) مجاز عقلي والمراد إحياء ما تراد له الأرض وهو النبات"[١٣٦].

وفي تنكير لفظ (آيات) إشارة إلى عظمتها[١٣٧]. وفي وصف القوم بالعقل (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ما يفيد أن استعمال أدنى درجات العقل في تأملها يهدي إلى وجود الله

---

[١٣٢] هي في الكتاب إلى والأصوب (إلا).

[١٣٣] الرازي ج ٤ ص ١٩٨.

[١٣٤] أبو حيان ج ١ ص ٦٣٩.

[١٣٥] انظر الرازي ج ٤ ص ١٩٨، وانظر ابن عطية ج ١٠ ص ٢٠٤ آية النحل ٦٥، الألوسي ج٢١ ص ٤٠ الروم ١٩، الشوكاني ج ٢٢ ص ١٢٠٦ فاطر ٩، الطاهر ج ٢٦ ص ٢٩٤ ق ١١.

[١٣٦] الطاهر ج ٢ ص ٨٣.

[١٣٧] انظر أبو السعود ج ١ ص ١٨٥ الألوسي ج ٢ص ٥٩٣.

تعالى ووحدانيته لوضوح الدلالة(١٣٨)، وفي إثباته للقوم تنويه بشأنهم وأن العقل " سجية فيهم، ومن مكملات قوميتهم... وهو تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بآيات ذلك ليست عقولهم براسخة ولا هي ملكات لهم"(١٣٩)، فهو مدح لهم من جهة(١٤٠)، وتعريض بالمعرضين الذين لم يستعملوا عقولهم للوصول للحق من جهة أخرى(١٤١).

ومن شواهد هذا الضرب قوله تعالى: (وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [الجاثية: ٥]، الذي شبهه بعض المفسرين بآية البقرة السابق ذكرها من بعض الوجوه(١٤٢). غير أن الآية سمت المطر رزقًا؛ لأنه سبب للرزق(١٤٣)، مع ما فيها من وضوح الدلالة على البعث(١٤٤)، ولعل ذلك لما في التشابه بين خروج النبات وخروج الموتى للبعث. ومن هنا فهو دمج للاستدلال في الامتنان بهذه النعمة وتنبيه " على كونِه آيةً من جِهتَيْ القُدرةِ والرحمةِ"(١٤٥).

ومثل آيتي البقرة والجاثية في ذكر أهمية العقل في الوصول لمعرفة الله تعالى وقدرته، لوضوح الدلالة على البعث(١٤٦) قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

---

١٣٨ انظر أبو حيان ج ٥ ص ٣٥٧ . في تفسير آيتي الرعد(٣-٤)، البقاعي ج ١٥ ص ٧٤، الطاهر ج ٢١ ص ٧٩ الروم ٢٤، البقاعي ج ١٨ ص ٦٧ آية الجاثية ٥.

١٣٩ الطاهر ج ٢ ص ٨٩ .

١٤٠ انظر البقاعي ج٢ ص ٢٩٨.

١٤١ انظر أبو السعود ج ١ ص ١٨٥، الألوسي ج ٢ ص ٥٩٣، الطاهر ج ٢ ص ٨٩.

١٤٢ انظر الرازي ج ٢٧ص ٢٥٩، ابن كثير ج ٢٥ ص ١٣٣، الطاهر ج ٢٥ ص ٣٢٧.

١٤٣ انظر الزمخشري ج ٣ ص ٥٠٩، البقاعي ج ١٨ ص ٦٦، أبو السعود ج ٨ ص ٦٨، الألوسي ج ٢٥ ص ١٨٧، الطاهر ج ٢٥ص ٣٢٧.

١٤٤ انظر البقاعي ج ١٨ ص ٦٦.

١٤٥ أبو السعود ج ٨ ص ٦٨.

١٤٦ انظر البقاعي ج ١٥ ص ٧٤ آية الروم ٢٤.

يَعْقِلُونَ) [الروم: ٢٤]، الذي ذكر آية إحياء الأرض وفيها " عبرة ودلالة واضحة على المعاد"([١٤٧])، ودمج للامتنان بنعمة المطر.

ومن التصريح بجهالة وعناد من لم يؤمن ويشكر آية إحياء الأرض بعد موتها جاء قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [العنكبوت: ٦٣]، فهم يعرفون ويعترفون أن إحياء الأرض بعد موتها، إنما هو شأن إلهي لا يستطيعه أحد من البشر، ويدخل فيه البعث " لملازمة القدرة على البعث"([١٤٨]) ويؤمنون بما قبله من الآيات مثل خلق السموات والأرض والرزق، إلا إنهم يعبدون آلهة لا تملك من أمرها شيئًا([١٤٩])، ولذلك أمر تعالى نبيه بحمده على جهة التعجب منهم والتوبيخ لعقولهم: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [العنكبوت: ٦٣]، و(بل) إضراب انتقال من حمد الله إلى ذمهم([١٥٠]). وإسناد عدم العقل لأكثرهم دون جميعهم؛ لأن من عقلائهم من وضحت له تلك الحجج فآمن ([١٥١]).

وتفترق هذه الآية عن شبيهاتها بزيادة حرف الجر (من) في قوله: (مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا)، وذكر الخطيب الإسكافي في مقارنة هذه الآية بآيتي البقرة: (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) [البقرة: ١٦٤]، والجاثية: (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) [الجاثية: ٥]، أن التقرير في آية العنكبوت استلزم تحديد ظرف زمان الإنبات؛ لأن " التقرير يؤثر فيه من تحقيق الكلام مالا يؤثر في غيره... وقوله: (مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا) تحقيق، لأنه محدود بـ(من) وخص به التقرير لأنه من أماكنه، وقوله في الآيتين الأخريين:

---

[١٤٧] ابن كثير ج ٢١ ص ٤٠٢.

[١٤٨] البقاعي ج ١٤ ص ٤٧٣، وانظر الطاهر ج ٢٠ ص ٣٩٣.

[١٤٩] انظر أبو حيان ج ٧ ص ١٥٤، ابن عطية ج ١٢ ص ٢٣٧-٢٣٨، ابن كثير ج ٢٠ ص ٣٩٣، البقاعي ج ١٤ ص٤٧٤، الألوسي ج ٢٠ ص ١٨.

[١٥٠] انظر الطاهر ج ٢٠ ص ٣٠.

[١٥١] انظر الطاهر بن عاشور ج ٢٠ ص ٣٠، والبقاعي ج ١٤ ص ٤٧٤ .

(فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) ليس فيه تقرير كما كانت الأولى، وإن كان يؤدي معنى المحدود إلا أنه ليس له لفظه، فاختلف الموضعان"([١٥٢])، ويفهم من هذا أن الكافرين يقرون بقدرة الله تعالى على إحياء الأرض عقب موتها مباشرة، والآية تقررهم بذلك. ودلالة حرف الجر (من) على إحياء الأرض عقب موتها مباشرة هو ما يفهم من كلام ابن جماعة([١٥٣])، فآية العنكبوت تشير إلى الإحياء عقب نزول المطر بخلاف الآيتين المشابهتين اللتين كان عدم ذكر الحرف فيهما للدلالة على كمال القدرة الإلهية على الإحياء ولو بعد حين.

وإذا كانت الآيات السابقة قد نوهت بشأن العقل في تدبر دلائل ألوهية الله ومنها إحياء الأرض بعد موتها؛ فقد جاء التنويه بشأن السمع في قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [النحل: ٦٥]، ضمن دلائل الألوهية والقدرة على البعث ([١٥٤]) التي جاءت في أول السورة مدمجًا فيها التذكير بنعمة إحياء الأرض([١٥٥])"، وفي مناسبة الآية لموقعها يقول الرازي: " اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصود الأعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة : الإلهيات والنبوات والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة: تقرير الآلهيات، فلهذا السبب كلما امتد الكلام في فصل من الفصول في وعيد الكفار؛ عاد إلى تقرير الآلهيات، وقد ذكرنا في أول هذه السورة أنه

---

[١٥٢] أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي : درة التنزيل وغرة التأويل، ت ٤٢٠ هـ، تحقيق د.مصطفى آيدن الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١ م، جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية ج٣ ص ١٠٢٤-١٠٢٥، انظر الطاهر ج ٢١ ص ٢٩.

[١٥٣] ابن جماعة : كشف المعاني في متشابه المثاني، ت ٧٣٣ هـ، تحقيق د.محمد محمد داوود الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ- ١٩٩٨ م، دار المنار للنشر والتوزيع / مصر ص ١٦٣-١٦٤، انظر البقاعي ج ١٤ ص٤٧٣.

[١٥٤] انظر الرازي ج ٢٠ ص ٦٣، القرطبي ج ١٠ ص ١٢٢، البقاعي ج ١١ ص ١٩١، أبو السعود ج ٥ ص ١٢٤، الشوكاني ج ١٤ ص ٧٨٩.

[١٥٥] انظر الطاهر ج ١٤ ص ١٩٧.

تعالى لما أراد ذكر دلائل الالهيات؛ ابتدأ بالأجرام الفلكية... فههنا في هذه الآية لما عاد إلى تقرير دلائل الإلهيات بدأ أولًا بذكر الفلكيات فقال: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) ([١٥٦])، ومع كونه عودة لذكر دلائل الألوهية إلا أن الكلام ابتدئ بلفظ الجلالة دون الإضمار؛ لقصد التنويه بالخبر إذ افتتح بهذا الاسم ([١٥٧])، وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة التخصيص، وهو أمر يقر به المشركون، وفي الإشارة إليها بالاسم الخاص بالبعيد (ذلك) وتنكير لفظ (آية) تنويه بعظمتها وعظيم النعمة فيها .

وذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بالسمع هو سماع التدبر([١٥٨])؛ لأنه أيضًا يهدي كالتفكر إلى الإيمان بالوحدانية؛ لأن في آية إحياء الأرض "دلالة على البعث، وعلى وحدانيته"([١٥٩]). وقيل: المراد بالسمع القبول([١٦٠])، وأشار بعض المفسرين إلى أن الحكمة من ذكر السمع هي وضوح الدليل حيث لا يحتاج إلى تفكر ونظر بالقلب، وإنما يحتاج إلى أن يسمع بإصغاء ([١٦١]).

وذكر صاحب الظلال أن إيقاع فعل الإحياء على الأرض " يجعله حياة للأرض كلها على وجه الشمول لكل ما عليها ومن عليها"([١٦٢])، ومن الممكن القياس عليه في المواضع المشابهة.

كما لمح بعض المفسرين تلاؤماً بين ذكر إحياء المطر للأرض بعد موتها وإحياء القرآن للقلوب الكافرة الميتة، لمجيء قوله تعالى: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا

---

[١٥٦] الرازي ج ٢٠ ص ٦٣ وانظر البقاعي ج ١١ ص ١٩١، الطاهر ج ١٤ ص ١٩٧.

[١٥٧] انظر الطاهر بن عاشور ج ١٤ ص ١٩٨.

[١٥٨] انظر الطبري ج ١٤ ص ٢٠٦، الزمخشري ج ٢ ص ٤١٦، القرطبي ج ١٠ ص ١٢٢، أبو حيان ج ١ ص ١٢٢، أبو السعود ج ٥ ص ١٢٤، الطاهر ج ١٤ ص ١٩٨.

[١٥٩] القرطبي ج ١٠ ص ١٢٢.

[١٦٠] انظر الألوسي ج ١٤ ص ٥٥٩.

[١٦١] انظر ابن عطية ج ١٠ ص ٢٠٤، البقاعي ج ١١ص ١٩٢ الألوسي ج ١٤ ص ٥٥٩.

[١٦٢] سيد قطب ج ٤ ص ٢١٨٠.

لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [النحل: ٦٤]، قبله، ولكنهم اختلفوا في هذا الارتباط، فرأى ابن كثير أن المراد " كما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها، بما أنزله عليها من السماء من ماء"([١٦٣])، ورأى أبو حيان في الآية عكس ما سبق، أي تشبيه إحياء القلوب بإحياء الأرض بعد موتها، وفي ذلك يقول: "أشار بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن كما قال تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) [الأنعام: ١٢٢]، فكما تصير الأرض خضرة بالنبات نضرة بعد همودها، فكذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتًا بالجهل"([١٦٤])، واقتران فعل الإحياء في أغلب آيات هذا القسم بالفاء (فأحيا، فيحيي) فيه تتجلى مظاهر التعجيل بالرحمة المدمجة في مظاهر القدرة.

ومن الضرب الثاني لآيات هذا القسم وهو ما صرحت فيه الآيات بالاستدلال على البعث، قوله تعالى: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) [الروم: ١٩]؛ حيث نصت الآية على أن إحياء الأرض يشبه البعث الذي ذكرته الآية بلفظ الإخراج ؛ ولعل ذلك لمناسبة ذكر إخراج الحي من الميت والميت من الحي، ويلفت إليه قول الشوكاني " أي يحييها بالنبات بعد موتها بالييباس وهو شبيه بإخراج الحي من الميت"([١٦٥]).

ومن التصريح بالاستدلال بإحياء الأرض على إحياء الموتى قوله تعالى: (فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الروم: ٥٠]، وجملة (كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) هي موضع طلب التدبر والاستبصار" أي: انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض"([١٦٦]). وصيغ فعل الإحياء، وهو مستعار للإنبات([١٦٧]) بصيغة الفعل

---

[١٦٣] ابن كثير مج ٢ ج ١٤ ص ٥٢٧.

[١٦٤] أبو حيان ج ٥ ص ٤٩٦.

[١٦٥] الشوكاني ج ٢١ ص ١١٣٠.

[١٦٦] الشوكاني ج ٢١ ص ١١٣٨.

المضارع في قوله: (يُحْيِي) والحكمة من ذلك، ومن حذف الجار قبل لفظ الموت للدلالة على التجدد والدوام، وفي هذا يقول البقاعي: "ولما كانت قدرته على تجديد إحيائها دائمة– على ما أشار إليه المضارع ودعا إليه مقصود السورة، أشار إلى ذلك أيضًا بترك الجار فقال: (بَعْدَ مَوْتِهَا) بانعدام ذلك"([168])، أي ذلك الموت المستعار للقحط ([169]). وفي الإشارة: (لَمُحْيِي الْمَوْتَى) في قوله: (إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى) تعظيم لشأن الله تعالى، مع ما يفيده حرف (إن) من التوكيد، وكل هذا مما يقتضيه مقام إنكار المنكرين للبعث.

ومن هذا الضرب قوله تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) [فاطر: ٩]، فمع ما أشارت إليه آيات السورة ضمنًا من الدلالة على البعث([170])؛ إلا أن الآية هنا صرحت بالاستدلال بإحياء الأرض على إحياء الموتى للبعث (كَذَلِكَ النُّشُورُ)، وفي الحكمة من ذلك يقول الطاهر: "واختير من دلائل الوحدانية دلالة تجمع أسباب المطر؛ ليفضي من ذلك إلى تنظير إحياء الأموات بعد أحوال الفناء بآثار ذلك الصنع العجيب، وأن الذي خلق وسائل إحياء الأرض قادر على خلق وسائل إحياء الذين ضمتهم([171]) الأرض على سبيل الإدماج"([172])، ولا يفترق الإحياءان في صحة القدرة الإلهية إلا في إلف الأول دون الثاني([173]).

---

[168] انظر ابن عطية ج ١٢ ص ٢٥١، الطاهر ج ٢١ ص ١٢٣.

[169] ج ١٥ ص ١٢٢.

[170] انظر ابن عطية ج ١٢ ص ٢٦٩، الطاهر ج ٢١ ص ١٢٣.

[170] انظر البقاعي ج ١٦ ص ٤، الرازي ج ٢٦ ص ٤ وانظر الآيات : ١، ٤،٥.

[171] هكذا في الكتاب ( ضمنتهم ) ولعلها (ضمتهم) لأنها أكثر ملاءمة للسياق.

[172] الطاهر ج ٢٢ ص ٢٦٧.

[173] انظر أبو السعود ج ٧ ص ١٤٥.

وعن أبي رزين العقيلي لقيط بن عامر قال:" قلت يارسول الله: كيف يحيي الله الموتى، قال: أما مررت بوادي قومك ممحلًا، ثم تمر به خضرًا، ثم تمر ممحلاً ثم تمر به خضرًا؟ كذلك يحيي الله الموتى"([١٧٤]).

ومن الآيات التي تدخل في الموضوع ذاته– إحياء الأرض– قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [فصلت: ٣٩]، ومثله ذكر الاهتزاز والربو والإنبات في قوله تعالى: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [الحج: ٥– ٦]، للإشارة إليه (ذَلِكَ)([١٧٥]) في الاستدلال على إحياء الموتى.

ومما جاء فيه دمج الامتنان بآية إحياء الأرض مع الاستدلال على البعث([١٧٦]) تصريحًا قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ* رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) [ق: ٩– ١١]، فالآية وردت في الرد على من أنكروا البعث: (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) [ق: ٣]، بذكر آيات ألوهيته وكمال قدرته التي يدخل فيها القدرة على البعث، مبتدئة بخلق السموات والأرض، وإنزال المطر؛ لتصرح أن آية إحياء البلدة

---

[١٧٤] صحيح الجامع :الألباني ص ١٣٣٤.

[١٧٥] انظر ابن جرير ج ١٧ ص ١٤٧،الزمخشري ج ٣ ص ٦ ابن عطية ج ١١ ص ١٧٩ أبو حيان ج ٦ ص ٣٢٨ البقاعي ج ١٣ ص ١٣ أبو السعود ج ٦ ص ٩٥ الألوسي ج ١٧ ص ١٥٣ الطاهر ج ١٧ ص ٢٠٤.

[١٧٦] انظر الطاهر ج ٢٦ ص ٢٨٩–٢٩١.

الميتة مع كونها نعمة فإنها تشبه الخروج للحشر (كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ)، مع ما يفيده اسم الإشارة المستعمل للبعيد (كَذَٰلِكَ) من تعظيم المشار إليه المشبه به وهو إحياء الأرض([١٧٧]).

وتتفق آية الفرقان: (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) [الفرقان: ٤٩] مع آية (ق) السابقة في إدماج الاستدلال مع الامتنان بنعم الله على عباده ومنها إحياء الارض بعد موتها، كما تتفقان في إسناد الإحياء إلى البلدة الميتة، إلا أنهما يفترقان في أمر آخر، فآية (ق ) في التصريح بالاستدلال على البعث ولذلك جاء قوله: (كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ)، في حين جاءت آية الفرقان في الاستدلال على الوحدانية والقدرة([١٧٨]) ضمن مجموعة من آيات قدرة الله تعالى ووحدانيته، ويدخل فيها ضمنًا إثبات القدرة على البعث لما سبق أن ذكر من ارتباطهما .

وتتفق الآيتان في أن "البلدة: الأرض. ووصفها بالحياة والموت مجازان للري والجفاف؛ لأن ري الأرض ينشأ عنه النبات وهو يشبه الحي، وجفاف الأرض يجفّ به النبات فيشبه الميّت"([١٧٩])، ثم تختلف امتداداتهما فتذكر سورة (ق) قصص المكذبين مع أنبيائهم، ثم الموت والحشر مما يلائم الخروج للبعث، وتكمل (الفرقان) آيات الألوهية والوحدانية.

ومن الباب نفسه وهو دمج الاستدلال على البعث مع الامتنان([١٨٠])، مع اختلاف الترتيب جاء قوله تعالى: (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ) [يس: ٣٣]، عقب ذكر البعث في قوله تعالى: (وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) [يس: ٣٢]، فدلت آية إحياء الأرض عليه وأدمجت الامتنان بعظيم النعمة. وذكر إخراج الحب والجنات، وتفجير العيون؛ لأن فيه إشارة إلى الإحياء

---

[١٧٧] انظر البقاعي ج ١٨ ص ٤١٣، الطاهر ج ٢٦ ص ٢٩٤.

[١٧٨] انظر الرازي ج٢٤ ص ٨٨ ن الطاهر ج١٩ ص ٤٦.

[١٧٩] الطاهر ج ١٩ ص ٤٨ آية الفرقان.

[١٨٠] انظر الرازي ج ٢٦ ص ٦٦.

الكامل للأرض ومماثلة البعث له في أنه حياة كاملة "فكأنه قال: نحيي الموتى إحياء تامًا كما أحيينا الأرض إحياء تامًا"([181]).

وجاء إحياء الأرض بعد موتها في قوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الحديد: ١٧]، مع كونه آية قدرة([182]) وامتنان تمثيلاً لتليين القلوب المشار إليها في قوله تعالى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) [الحديد: ١٦]، بعد قسوتها، والمراد كما ذهب جمع من المفسرين " كما نحيي هذه الأرض الميتة بعد دروسها، كذلك نهدي الإنسان الضّالّ عن الحقّ إلى الحقّ، فنوفّقه ونسدّده للإيمان حتى يصير مؤمنًا من بعد كفره، ومهتديًا من بعد ضلاله"([183]).

## الفصل الثاني

## النسق التركيبي

### أولًا: صياغة جمل الإحياء والإماتة

جاءت آيات هذا القسم لبيان مظهرين من مظاهر انفراد الله تعالى بالألوهية وهما الإحياء والإماتة، وهو ما ذكره الزمخشري حين قال: "وفي (يحيي ويميت) بيان لاختصاصه بالإلهية؛ لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره"([184])

---

[181] الرازي ج ٢٦ ص ٦٦.

[182] انظر الرازي ج ٢٩ ص ٢٣٠، الشوكاني ج ٢٧ ص.١٤٥٩

[183] ابن جرير ج ٢٧ ص ١٣٢، وانظر الزمخشري ج٤ ص٦٤، ابن عطية ج١٥ ص ٤١٧، الرازي ج٢٩ ص٢٣٠، القرطبي ج ١٧ ص ٢٥٢، البيضاوي ج ٤ ص٤٥٣، أبو حيان ج ٨ ص ٢٢٢، ابن كثير مج ٤ ج ٢٧ ص ٢٨٠، البقاعي ج١٩ ص ٢٨١، أبو السعود ج ٨ ص ٢٠٩، الشوكاني ج ٢٧ ص١٤٥٩، الألوسي ج ٢٧ ص٢٤٢، الطاهر بن عاشور ج ٢٧ ص٣٩٣.

[184] الزمخشري ج ٢ ص ١٢٣ تفسير آية الأعراف.١٥٨.

وبالتأمل في صياغة هذه الحقيقة نجدها وردت في تراكيب مختلفة تحمل- مع وحدة الغرض وهو اختصاص الله تعالى بالإحياء والإماتة- فروقًا دلالية، فمن تلك التراكيب وردت بدلًا في جمل فعلية فعلها مضارع، مستقلة تارة، أو جزءًا من جمل اسمية تارة أخرى، إما خبرًا للمسند إليه، أو صلة للموصول، أو خبرًا لـ (أن) و(إن). وجاءت جملاً فعلية فعلها ماض.

فمما جاءت فيه بدلًا في جملة فعلية فعلها مضارع في جمل مستقلة آية الأعراف: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ) [الأعراف: ١٥٨]، وآية التوبة: (إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ) [التوبة: ١١٦]، وآية الدخان: (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ) [الدخان: ٨]، وآية الحديد: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ) [الحديد: ٢].

ووردت جملتا الإحياء والإماتة في هذه الآيات عقب إسناد ملكية السموات والأرض وربوبيتهما له تعالى؛ لأنهما " مما يشتمل عليه معنى ملك السموات والأرض؛ لأنهما من أحوال ما عليهما"([١٨٥])، فهما بدل اشتمال من ذكر الألوهية والملك، ولعل لهذا السبب لم يقتض المقام ذكر المسند إليه، يقول الشوكاني في آية الأعراف " وجملة (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ([١٨٦])) بدل من الصلة مقرر لمضمونها مبين لها؛ لأن من ملك السموات والأرض وما فيهما هو الإله على الحقيقة، وهكذا من كان يحيى ويميت فهو المستحق لتفرّده بالربوبية ونفى الشركاء عنه"([١٨٧]).

ومع القول بحذف المسند إليه في الجمل التي جاءت بدلاً عقب ذكر ملك الله تعالى للسموات والأرض ورد ذكر المسند إليه في يونس: (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ) [يونس: ٥٦]، بعد قوله: (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [يونس: ٥٥]؛ ولعل ذلك لأن مجي جملة (أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

---

[١٨٥] الطاهر ج ٢٧ ص ٣٥٩.

[١٨٦] هي في النص (الله ) وصريح الآية ( هو ).

[١٨٧] الشوكاني ج ٩ ص ٥٠٥.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) قد فصلت بينهما فناسب التهيئة لمعنى الإحياء والإماتة بذكر المسند إليه.

ومثله في ذكر المسند إليه وتقدمه على المسند الفعلي ما ورد في آل عمران: (وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ) [آل عمران: ١٥٦]، والآية رد على زعم الكافرين أن عدم خروج إخوانهم للجهاد والتجارة سيبقيهم أحياء وعلى هذا فهي جملة مستأنفة، وقيل إنها حالية، وجاءت الجملة مفيدة للقصر لاقتضاء مقام إنكار المنكرين أن المؤثر الحقيقي في الإحياء والإماتة لله تعالى وحده.

ومثله أيضا في تقدم المسند إليه على الخبر الفعلي قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [الجاثية: ٢٦]، الذي جاء للرد على ادعاء المنكرين للبعث أن الدهر يهلكهم، وعلى طلبهم رجوع آبائهم للدنيا، فناسب وروده بأسلوب القصر.

وتلتقي دلالة الجملة الاسمية على الثبات والدوام مع دلالة صيغة المضارع لفعلي الإحياء والإماتة على التجدد والاستمرار في إثبات دوام واستمرار هذه الحقيقة الإلهية.

وقريب منها في التركيب مجيء فعلي الإحياء والإماتة فيه في جمل اسمية، صلة للموصول مما دل على القصر عن طريق تعريف الطرفين، ومن ذلك آية الحج: (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) [الحج: ٦٦]، دل الموصول على كون الصلة أمرًا معروفًا لدى السامع لا ينكره إلا معاند ومكابر، ومثله ماجاء في سورة المؤمنون: (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) [المؤمنون: ٨٠]، المعطوفة على آيات قدرة الله تعالى، فالآية من عطف الغرض على الغرض، ولعل هذا ما اقتضى التصريح بذكر المسند إليه؛ لأن السياق انتقل من ذكر الكافرين ومصيرهم إلى ذكر آيات تمام قدرته.

وقريب منه في اسمية الجملة وكون الإحياء والإماتة صلة الموصول المفيد للقصر بتعريف الطرفين، غير أنه مبني على الاستئناف قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي

يُحْيِي وَيُمِيتُ) [غافر: ٦٨]، وذُكِر المسند إليه هنا؛ لأن الجملة "استئناف خامس"([١٨٨]) لدلائل ألوهية الله تعالى وكمال قدرته، واستعمل الموصول لمعرفتهم بصلته، ومثله في الاستئناف وورود الفعلين في جملة اسمية صلة للموصول المسند للفظ الجلالة مما يفيد القصر قوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) [الروم: ٤٠]؛ لاستئناف الجملة معنى جديدًا عما قبلها، وهو ما أشار إليه الطاهر حين قال: " هذا الاستئناف الثاني من الأربعة التي أقيمت عليها دلائل انفراد الله تعالى بالتصرف في الناس وإبطال ما زعموه من الإشراك في الإلهية"([١٨٩]). وقد أشار في أول هذه الاستئنافات إلى الحكمة من ابتداء الجمل بلفظ الجلالة وهو إسناد أخبار عن حقائق لا قِبَل لهم بدحضها([١٩٠]).

ومثله قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) [البقرة: ٢٥٨]، وقد سبق ذكر دلالة الموصول على معرفة النمروذ بأن الله تعالى هو المحيي المميت على الحقيقة، وما كان ادعاؤه القدرة عليهما إلا من قبيل الجدل والمكابرة.

وجاء فعلا الإحياء والإماتة أيضًا في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) [الشعراء: ٨١]، صلة للموصول متلائمًا مع معرفة واعتراف سيدنا إبراهيم عليه السلام بما نسبه لربه.

وإذا كانت جملة الإحياء والإماتة قد وردت فيما سبق دون استعمال أدوات التوكيد، فقد وردت خبرًا للمسند إليه المؤكد بـ (أن وإن)، مع ضمير الفصل المفيد للقصر في عدة مواضع منها، قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ) [ق: ٤٣]، وقوله تعالى: (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) [الحجر:٢٣]، وقوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) [النجم: ٤٤]، ويأتي التوكيد مع القصر في

[١٨٨] الطاهر ج ٢٤ ص ١٩٩.
[١٨٩] الطاهر ج ٢١ ص ١٠٧.
[١٩٠] انظر الطاهر ج ٢١ ص ٦١.

الآيات الثلاث لتحقيق إثبات الفعلين لله تعالى وحده. ولعل كل هذه التوكيدات ملائمة لعظمة شأن البعث الذي تصفه، وهو ما سماه البقاعي: الإحياء الأكبر من جهة، ولإنكار المنكرين له .

وجاء غالب الأفعال في هذا القسم من البحث مضارعًا، واختلفت دلالة بعضها عن بعض حسب السياق ففي آية البقرة: (يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [البقرة: ٢٨]، دل المضارع على أصله من الاستقبال(١٩١)، وذكر البقاعي دلالة تجدد الحدوث(١٩٢) في قوله تعالى: (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) [الجاثية: ٢٦]. وقليل من الآيات جاء ماضيًا نحو قوله تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) [البقرة: ٢٨]، حيث ورد لفظ الموت خبرًا لفعل الكون الناسخ إشارة إلى ما كان عليه الإنسان من العدم { أمواتًا } فأخرجه الله تعالى إلى الحياة بفعل الإحياء { فأحياكم } فالكينونة في الموت عدم، والإحياء وجود عبر عن تحقق وقوعه فعل {أحياكم } الماضي. أما قوله: (مُوتُوا) في آية البقرة: (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) [البقرة: ٢٤٣]، فيحكي فعل الأمر (مُوتُوا) سهولة وقوع الحدث وهو الإماتة من الإله القادر، حيث ذكر المفسرون أنهم ماتوا مباشرة بقول كن فيكون. ويحكي الماضي (أحياهم) حكاية حصول القصة في الزمن الماضي(١٩٣). وفي آية النجم: (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) [النجم: ٤٤]، لعل المراد كما سبق تحقق الوقوع.

## ثانياً: صياغة جمل إحياء الموتى

وأول ما يلحظ في هذا التركيب إيقاع فعل الإحياء على اسم الموتى. ومع ما في كون الموتى مفعولًا لفعل الإحياء من تأكيد تحقق وقوعه، إلا أن سياقاته جاءت

---

١٩١ ومثله الشعراء ٨١، الحج ٦٦، الروم ٤٠.

١٩٢ انظر البقاعي ج ١٨ ص ١٠١، وانظر البقاعي ج ١٩ ص ٢٥٤ الحديد آية ٢، وج ١٨ ص ٤٤١ق آية ٤٣، انظر لطاهر ج ٢٥ ص ٢٨٤ الدخان ٨، ق ٤٣.

١٩٣ ومثله البقرة ٥٦، ٢٥٩، غافر ١١، الحج ٦٦،الروم ٤٠.

تحمل وسائل توكيد أخرى، ولعل الحكمة من ذلك شدة إنكار الكفار للبعث أكثر من أي جانب من جوانب الألوهية، وهو ما ذكره أبو السعود ([194]).

ويرى د. أبو موسى في التوكيد في نحو قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى) [الحج: ٦]، أنه جاء لأهمية المعنى الذي ورد فيه حيث يقول: "وقد يأتي التوكيد في الجمل التي كأنها نتائج لمقدمات فيلفت التوكيد إلى هذه الجمل وكأنها هي المقصودة الأهم، وموضع العناية. وهي كما ترى تتضمن أصولًا مهمة في الشرائع كلها"([195]).

ومن أساليب التوكيد التي يخاطب بها المنكرون للبعث استعمال (إن) مع اللام المزحلقة في نحو قوله: (لَمُحْيِي الْمَوْتَى)([196])، واستعمال ضمير الفصل وهو من طرق القصر: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى) [يس: ١٢].

ومن ذلك اقتران خبر جملة الاستفهام الإنكاري المتصل بالنفي (أليس، أو لم يروا) بالباء المؤكدة لمعنى الإنكار (بقادر) مما يفيد تأكيد الإثبات وتقرير قدرة الله تعالى على هذا الإحياء، في قوله: (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [القيامة: ٤٠]، وقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) [الأحقاف: ٣٣].

وفي معنى التوكيد في حرف الجر (الباء) يقول البقاعي:" وأكد الإنكار المتضمن للنفي بزيادة الجار في حيز (أن) فقال تعالى: (بِقَادِرٍ) أي قدرة عظيمة تامة بليغة"([197]).

وقريب منه في دلالة التوكيد دون استعمال أدواته الخاصة الرد على من سأل عن إحياء العظام وهي رميم في آية يس باستعمال الاسم الموصول: (قُلْ يُحْيِيهَا

---

[194] انظر أبو السعود ج ٦ ص ٩٥.

[195] د.أبو موسى : خصائص التراكيب ص ٩٨-١٠٠.

[196] الروم ٥٠، فصلت ٣٩.

[197] البقاعي ج ١٨ ص ١٨٧.

الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) [يس: ٧٩]، مما يفيد معرفة السائل بفحوى الجواب حيث لا يستطيع ادعاء أن غير الله تعالى قد أنشا أول مرة.

وجاء اسم الإشارة ( ذلك ) المشار به إلى الرؤية البصرية لإحياء قتيل بني إسرائيل في قوله تعالى: (كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى) [البقرة: ٧٣]، يحمل دلالة التوكيد التي لا يمكن الشك فيها.

أما صيغ الأفعال هنا فجاءت كلها مضارعة، ويذهب البقاعي في دلالتها إلى القول بالتجدد والاستمرار([١٩٨])" كلهم حسًا بالبعث، ومعنى بالإنقاذ إذا أردنا من ظلم الجهل"([١٩٩]) مما يفهم منه تجدد إخراج الناس من الضلال إلى الهداية على محمل الاستعارة، وقد يحتمل المعنى تجدد إحياء النطفة والأرض الميتة، وإلى هذا المعنى يشير أبو السعود في آية الحج، حين يقول: (وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى) [الحج: ٦]، أي شأنُه وعادته إحياؤُها، وحاصلُه أنَّه تعالى قادرٌ على إحيائها بَدْءًا وإعادةً، وإلاَّ لما أحيا النُّطفةَ والأرضَ الميتةَ مرارًا بعد مرارٍ"([٢٠٠]).

## ثالثا: صياغة جمل إحياء الأرض بعد موتها

وأول ما يلفت النظر في تركيب جمل السياق شبهه بسابقه من حيث إيقاع فعل الإحياء على اسم (الأرض، بلدة) متعلق بظرف (بعد موتها) أو صفة (بلدة ميتًا). ويختلف هذا التركيب عن سابقه في إسناد الإحياء لشيء ظاهر أمامهم؛ وهو الأرض بعد جدبها وقحطها، ولعل هذا أقرب لاحتمال إيمانهم بالله تعالى؛ لورود الإحياء بدليله المرئي الذي لا يستطيعون إنكاره، واستمالتهم بذكر النعمة ضمن هذا الدليل، وهو أقرب وأوضح طريق لإثبات إمكان البعث إلى عقولهم.

---

[١٩٨] انظر البقاعي ج ١٦ ص ١٠١ آية يس ١٢، ج ١٨ ص ١٨٧ آية الأحقاف ٣٣، ج ٢١ ص ١١٨القيامة ٤٠.

[١٩٩] البقاعي ج ١٦ ص ١٠١.

[٢٠٠] أبو السعود ج ٦ ص ٩٥ آية الحج ٦.

وجاء غالب آيات هذا القسم يربط بين ماء المطر وإحياء الأرض بعد موتها([٢٠١])، وفي ذكر المطر بوصفه إنزال الله تعالى الماء من السماء "من استحضار الحالة ما ليس في نحو كلمة المطر والغيث"([٢٠٢])، لما في إسناد الإنزال إلى الله تعالى من دلالة على الألوهية وكمال القدرة([٢٠٣]). أما اختصاص ماء المطر للإحياء؛ فلكونه "صالحًا بكل أرض وبكل نبات على اختلاف طباع الأرضين والمنابت"([٢٠٤])، ولعل في التصريح بذكره تنويه بشأنه في إحياء الأرض يناسب مقام الامتنان المدمج في الاستدلال.

ومن الملحوظ مجيء فعل إحياء الأرض في عدة سياقات مسندا لضمير العظمة([٢٠٥])، وفيه مزيد تفخيم لهذه القدرة العظيمة، كما يلحظ مجيء نون العظمة في الأفعال المجاورة لفعل الإحياء في هذه الآيات.

ويفهم من كلام البقاعي عن ضمير العظمة في الأفعال في سورة (الفرقان) أنه أرجع الحكمة من وروده في الأفعال التي سبقت الآية وتلتها إلى عظمة مرتبتها([٢٠٦])، لكنه لم يشر إلى الحكمة في فعل نحيي، ومثله أبو السعود الذي قال عن الحكمة من اتصال فعل أنزلنا بنون العظمة، لإبراز كمال العناية بالفعل([٢٠٧]). وذكر البقاعي الحكمة في آية يس قبل قوله: (أَحْيَيْنَاهَا) وبعده وأعادها إلى إبراز مظهر العظمة([٢٠٨]) مما يفهم منه عظمة آية إحياء الأرض الميتة.

---

[٢٠١] البقرة ١٦٤، الجاثية ٥، الروم ٢٤، العنكبوت ٦٣، النحل ٦٥، الروم ٥٠، فاطر ٩، الحج ٥، فصلت ٣٩، ق ٩-١٠، الفرقان ٤٨-٤٩.

[٢٠٢] الطاهر ج ٢ ص ١٨. آية البقرة ١٦٤.

[٢٠٣] انظر المصدر السابق.

[٢٠٤] الطاهر ج ١٩ ص ٤٨ آية الفرقان ٤٩.

[٢٠٥] الفرقان ٤٩، فاطر ٩، يس ٣٣، ق١١.

[٢٠٦] انظر البقاعي ج ١٣ ص ٣٩٨ آية ٤٦، ج ١٣ ص ٤٠١ آية ٤٨، انظر البقاعي ج ١٣ ص ٤٠٢.

[٢٠٧] انظر أبو السعود ج ٦ ص ٢٢٤.

[٢٠٨] انظر البقاعي ج ١٦ ص ١٢٢، ١٢٣، البقاعي ج ١٨ ص ٤١٣آية ق ١١.

وأشار الطاهر إلى الحكمة من إسناد الأفعال لضمير المتكلم إلى سياق الامتنان في الأفعال التي سبقت فعل الإحياء([٢٠٩])، ولم يذكر الحكمة من كون فاعل الإحياء ضميرًا للعظمة.

وأما آية فاطر فقد سبق ذكر قول الزمخشري عن الالتفات لضمير المتكلم أنه "أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه"([٢١٠])، فالحكمة تعود إلى اختصاص الله تعالى بهذه الأمور، وهو ما ذكره أبو السعود من تكميل " المُماثلةِ بين إحياءِ الأرضِ وبين البعثِ الذي شُبِّه به بقوله تعالى: (كَذَٰلِكَ النُّشُورُ) في كمال الاختصاصِ بالقُدرةِ الرَّبانيةِ"([٢١١]).

ومن الملحوظ عدم إسناد أفعال إحياء الأرض لضمير العظمة في أغلب السياقات المشابهة من الاستدلال على البعث، ولعل ذلك لأن أغلبها يعود للفظ الجلالة الذي قال عنه البقاعي إنه أعظم من صيغة العظمة([٢١٢]).

وجاءت أغلب جمل إحياء الأرض بعد موتها غير مؤكدة، وهذا ملائم لمعرفتهم واعترافهم بهذه الآية من آيات الله تعالى كما جاء في قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [العنكبوت: ٦٣]، لكنها في عدة آيات جاءت تحمل شيئًا من التوكيد نحو دلالة أساليب القصر في قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [النحل: ٦٥]، وقوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الحديد: ١٧]، وقوله تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ) [فاطر: ٩].

---

[٢٠٩] انظر الطاهر ج ١٩ ص ٤٢.

[٢١٠] الزمخشري ج ٣ ص ٣٠٢.

[٢١١] أبو السعود ج ٧ ص ١٤٥.

[٢١٢] انظر البقاعي ج ١٥ ص ٥٨ آية الروم ١٧.

أما آية النحل فأفادت قصر نفي الشركة مع الله تعالى في الإحياء، ولعل ذلك لأن المقام "مقام تحقيق الانفراد بالخلق والإنعام دون غيره من شركائهم؛ لأن المشركين يقرون بأن الله فاعل هذه الأشياء"([٢١٣]).

وفي آية الحديد يتجاور التوكيد بإن مع القصر بتقديم المسند إليه على المسند الفعلي، ولعل ذلك لبث اليقين في قلوب المؤمنين الذين جاءت الآية تطمئنهم إلى قدرة الله تعالى على إحياء القلوب بعد موتها كما يعيد الحياة للأرض التي يشاهدون موتها مرة أخرى.

وفي آية فاطر دل القصر بتعريف الطرفين (الله الذي) في الآية على نفي أن يقدر أحد غيره سبحانه على ذلك؛ حتى لا يظن ظان أن لغيره سبحانه من الطبيعة ونحوها تأثيرًا في إرسال الرياح وإحياء الأرض بعد موتها([٢١٤])، ودل الموصول على معرفتهم بمضمون الصلة.

وصرحت بعض الآيات بأداة التوكيد نحو قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...) [البقرة:١٦٤]، المفتتحة بإن المؤكدة، وآية الجاثية: (وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [الجاثية:٥]، في قول من نصب لفظ (آيَاتٌ)([٢١٥]) لعطفها على قوله تعالى: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) [الجاثية:٣].

أما آية البقرة فلم أجد– على حد علمي– من تعرض للحكمة من التوكيد فيها سوى الطاهر الذي ذكر احتمال كونها للاهتمام أو للرد على إنكار منكر فقال: "موقع هذه الآية عقب سابقتها موقع الحجة من الدعوى... فإن هنا لمجرد الاهتمام

---

[٢١٣] الطاهر ج ١٤ ص ١٩٨.

[٢١٤] انظر البقاعي ج ١٦ ص ١٦.

[٢١٥] انظر على سبيل المثال الزمخشري ج ٣ ص ٥٠٨، ابن عطية ج ١٤ ص ٣٠٤، البقاعي ج ١٨ ص ٦٧ أبو السعود ج ٨ ص ٦٨.

بالخبر لِلَفْت الأنظار إليه، ويحتمل أنهم نُزلوا منزلة من ينكر أن يكون في ذلك آيات (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) لأنهم لم يجروا على ما تدل عليه تلك الآيات"([٢١٦]).

وأما آية الجاثية فذكر أبو السعود قول من قال إن الآية جواب القسم (حم)، وعادة الجواب التوكيد، في حين ذهب الطاهر إلى أن الحكمة من التوكيد: تنزيل الكافرين منزلة المنكرين مع عدم إنكارهم للأمر فقال " وأكد بـ (إنَّ) وإن كان المخاطبون غير منكريه لتنزيلهم منزلة المنكر لذلك بسبب عدم انتفاعهم بما في هذه الكائنات من دلالة على وحدانية الله تعالى"([٢١٧])، وجملة الشاهد من الآية: (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) [الجاثية: ٥]، معطوفة في أحد القولين على آية التوكيد: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) [الجاثية: ٣]؛ فيصدق عليها ما يصدق على آية التوكيد.

أما صياغة الأفعال، فجاء بعضها ماضيا؛ كقوله تعالى: (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)([٢١٨])، وجاء بعضها مضارعًا نحو قوله تعالى: (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)([٢١٩]).

وذهب البقاعي في دلالة المضارع في قوله تعالى: (كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) [الروم:٥٠]، إلى التجدد والدوام([٢٢٠])، في حين ذهب الطاهر إلى القول بإفادة المضارع لاستحضار صورة هذا الإحياء العجيبة في الذهن([٢٢١]) ولعل استعمال المضارع في آيات الروم الثلاثة يفيد استحضار الصورة في الذهن لآيات قدرة الله

---

[٢١٦] الطاهر ج ٢ ص ٧٦.

[٢١٧] الطاهر ج ٢٥ ص ٣٢٦.

[٢١٨] انظر: البقرة ١٦٤، النحل ٦٥، العنكبوت ٦٣، الجاثية ٥، فاطر ٩،فصلت ٣٩، يس ٣٣، ق ١١.

[٢١٩] انظر الروم ١٩، ٢٤، ٥٠، الفرقان ٤٩، الحديد ١٧.

[٢٢٠] انظر البقاعي ج ١٥ ص ١٢٢ ، الروم ٥٠، وانظر ج ١٥ ص ٧٣,٧٤ ، الروم ٢٤، ج ١٩ ص ٢٨١ الحديد ١٧.

[٢٢١] انظر الطاهر ج ٢١ ص ٦٨، آية الروم ١٩و انظر ج ٢١ ص ١٢٣ الروم ٥٠.

تعالى، ولعل في استحضار الصورة في الذهن ارتباطًا آخر يعود لتوكيد الأمر الغيبي في السورة وهو انتصار الروم على الفرس .

أما آية الفرقان فلم أجد أحدًا من المفسرين الذين رجعت إليهم في البحث قد أشار إلى الحكمة من استعمال صيغة المضارع لفعل الإحياء، ولعل من الممكن القول فيه بأنه مع دلالته على زمن وقوعه عقب نزول المطر لترتبه عليه، فهو يفيد استحضار صورة الإحياء العجيبة كما ذكر الطاهر في آيتي الروم السابق ذكرها .

أما الأفعال الماضية في بقية السياقات فلعل في دلالة الماضي فيها تحقيقًا لوقوعه بحصوله أمام أعينهم واستدلالًا به على البعث، فالمقام لم يكن يستدعي استحضار الصورة في الذهن، أو دلالة التجدد.

## الحقيقة والمجاز في آيات الإحياء والإماتة

تبين من دراسة سياقات فعلي الإحياء والإماتة في الفصل الأول أن المراد بهما الإحياء والإماتة الحقيقيان للإنسان والحيوان والنبات، والمجازيان للقلوب والإيمان ونحوها، وفي ذكر إحياء الموتى كان المراد على الأرجح الحقيقة بإحياء الناس للبعث وهو موطن إنكار الكفار.

وذكر المفسرون أن إحياء الأرض بعد موتها على سبيل الاستعارة بتشبيه جدب الأرض بالميت واهتزازها بالنبات والأشجار والثمار بالحي. وذكر الطاهر احتمال أن يكون من قبيل المجاز العقلي بإسناد الإحياء إلى مكانه وهي الأرض، وقد يدخل في الحقيقة إحياء الأرض إذا أخذنا وجود حياة في كل شيء حتى الجمادات كما سبق أن ذكر. وذكروا أيضًا أن قوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الحديد: ١٧]، تمثيل لتليين القلوب القاسية فهو من قبيل الاستعارة التمثيلية؛ حيث استعير حال إمكان إحياء الأرض بعد موتها لحال إصلاح القلوب بعد قسوتها بقدرة الله تعالى، وهي من المجاز المركب في حال جعل

إحياء الأرض استعارة لظهور زرعها ونباتها، فالمجاز الأول يتمثل في هذه الاستعارة، والثاني استعارة هذه الهيئة لحال تليين القلوب بعد قسوتها.

وقريب منها قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) [النحل: ٦٥]؛ حيث لمح بعض المفسرين– كما سبق– تلاؤمًا بين ذكر إحياء المطر للأرض بعد موتها وإحياء القرآن للقلوب الكافرة، فكما يحيي الله الأرض بعد موتها يحيي القلوب بالقرآن، فهناك ارتباط بين المطر والقرآن في الإحياء، واختلفوا في ترتيب المشبه والمشبه به، حيث جعل ابن كثير المشبه حياة القلوب الميتة بكفرها، والمشبه به إحياء الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء. ورأى فيها أبو حيان عكس ذلك فرأى أنه أشار بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن "فكما تصير الأرض خضرة بالنبات نضرة بعد همودها، كذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتًا بالجهل"([٢٢٢]).

وربط ابن كثير– كما سبق أن ذكر– الإحياء في آية يس: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى) بإحياء القلوب حين قال "وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق؛ كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) [الحديد:١٧]"([٢٢٣])، والإحياء والموت للقلوب من قبيل الاستعارة كما لا يخفى.

ومما جاء فيه لفظ الإحياء والإماتة استعارة قوله تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام: ١٢٢]، يقول أبو حيان: "والموت والحياة والنور والظلمة مجاز، فالظلمة مجاز عن الكفر، والنور مجاز عن الإيمان، والموت

[٢٢٢] أبو حيان ج ٥ ص ٤٩١.
[٢٢٣] ابن كثير ج ٢٢ ص ٥٢٦.

مجاز عن الكفر"([٢٢٤]) فاستعير الموت للكفر بجامع عدم نفع النفس؛ لأن الميت لا يستطيع أن ينفع نفسه والكافر كذلك، واستعيرت الحياة للإيمان بجامع النفع للنفس بإنقاذها من موارد الهلاك. وفي السياق استعير النور للهداية بجامع الوصول للهدف ويدخل فيه انشراح الصدر والارتياح، واستعيرت الظلمات للكفر بجامع التخبط والحيرة والضلال، ويدخل فيه الضيق والوحشة، وأفاد قوله: (لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) أنه "لا يهتدي إلى منفذ ولا مَخْلص مما هو فيه"([٢٢٥]). ويقابل هذا الكافر المنغمس في الكفر المؤمن الذي يمشي بنوره في الناس فينفعهم([٢٢٦])، ويؤكد الاستفهام الإنكاري([٢٢٧]) في قوله: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ) نفي تساوي هذين المثلين، مثل المؤمن الحي الذي يسير مهتديًا هاديًا، والكافر المنغمس في الظلمات ليس بخارج منها، لا ينفع نفسه ولا غيره. وذكر بعض المفسرين في تقدير العطف المحذوف قبل الواو { أو من } عدة تقديرات منها أن المراد " أفطاعة هذا الذي هديناه للحقّ وبصرناه الرشاد كطاعة من مثله مثل من هو في الظلمات متردّد لا يعرف المخرج منها في دعاء هذا إلى تحريم ما حرّم الله وتحليل ما أحلّ وتحليل هذا ما حرّم الله وتحريمه ما أحلّ؟"([٢٢٨]).

واختلف المفسرون في هذين المثلين المنفي تساويهما هل هما من قبيل التشبيه أو الاستعارة، فمال الإمام أبو السعود إلى القول بأنهما من قبيل الاستعارة التمثيلية([٢٢٩])، لعدم وجود المشبهين في الصورتين، صورة من كان ميتًا فأحيي التي استعيرت للمؤمن الذي هداه الله للإيمان، وصورة المنغمس في الظلمات المستعارة

---

[٢٢٤] أبو حيان ج ٤ ص ٢١٦.

[٢٢٥] ابن كثير ج ٨ ص ١٦٠.

[٢٢٦] انظر أبو حيان ج ٤ ص ٢١٦.

[٢٢٧] انظر أبو السعود ج ٣ ص ١٨٠، الألوسي ج ٨ ص ٣٥٥، الطاهر ج ٨ ص ٤٣.

[٢٢٨] ابن جرير ج ٨ ص ١٤٠.

[٢٢٩] انظر أبو السعود ج ٣ ص ١٨١، الألوسي ج٨ ص ٣٥٦، انظر الطاهر ج ٨ ص ٤٥,٤٤.

لحال الكافر، والكاف لنفي المشابهة بين الحالين المستعارين لمن آمن بعد الكفر ولمن بقي فيه. في حين نقل الألوسي عن القطب الرازي أنه من قبيل التمثيل ورده([٢٣٠]).

## تقدم الموت أو الحياة في آيات الإحياء والإماتة

جاءت الحياة مقدمة على الموت في أغلب السياقات، وذلك لأنها "كذلك في الخارج، ولأن زمن الحياة أكثر؛ لأن البعث حياة دائمة لا موت بعدها"([٢٣١])، وذكر الرازي في الحكمة أن "المقصود من ذكر الدليل إذا كان هو الدعوة إلى الله تعالى؛ وجب أن يكون الدليل في غاية الوضوح، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، واطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة هٰهنا في الذكر"([٢٣٢])، فجعل تقدم الحياة لظهورها ووضوح دلائلها عند المخاطب.

وذكر د. محمد أبو موسى أن سبب تقديم الإحياء على الإماتة أن "الموت لا يقع إلا على حي"([٢٣٣]).

وهناك عدة مواضع تقدم الموت أو الإماتة فيها على الحياة والإحياء نحو قوله تعالى: (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) [البقرة: ٢٨]، وسبق أن أشير إلى أن السبب قد يعود لذكر بداية خلق آدم عليه السلام، ونقل البقاعي عن الحرالي قوله: "حقيقة الموت حال غيب بين يديه ظهور، والحياة نهاية ثابتة، والموت مبدأ غيب زائل، فجنس الموت كله متقض ونهاية، والحياة ثابتة دائمة؛ ولذلك ورد ما صح عنه عليه الصلاة والسلام في أن الموت يُذبح، إعلامًا بانقضاء جنسه وثبات الحياة، ولذلك قدم في الذكر وأعقب بالحياة حيث استغرقتهما كلمة "أل" في قوله: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) [الملك: ٢]، وثبت الخطاب على إقرار الحياة والكمال، كما ورد عنه صلى

---

[٢٣٠] انظر الألوسي ج ٨ ص ٣٥٦.

[٢٣١] البقاعي ج ١٩ص٢٥٤ آية الحديد ٢.

[٢٣٢] الرازي ج ٧ ص ٢٤ آية البقرة ٢٥٨.

[٢٣٣] د.محمد أبو موسى : آل حم، غافر، فصلت ص ٢٥٤ آية غافر ٦٨.

الله عليه وسلم في قوله: (نعيم الجنة لا آخر له)" ([٢٣٤])، ويفهم من قول الحرالي أن تقديم الموت لأنه غيب زائل، وسيذبح يوم القيامة فلا بقاء له، والحياة هي الأصل والكمال وهي ثابتة دائمة إلى مالا نهاية حيث الخلود في أحد الدارين الجنة أو النار، وهو قريب مما ذكره البقاعي في تقديم الحياة من ثباتها ودوامها غير أنه أضيف هنا أمر يخص جنس الموت وهو الانقضاء والزوال. ولعل (الموت) هنا يعني الكفر، فهو مجاز، أي كنتم كفارًا فأرسل إليكم الرسل وأنزل الكتب، ليحييكم بالإسلام والإيمان، ويعززه قوله في سورة يس: (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ* لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) [يس: ٦٩- ٧٠].

ومن المواضع التي تقدمت فيها الإماتة على الإحياء قوله تعالى: (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) [الشعراء: ٨١]، ولعل ذلك لصحة الترتيب؛ لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام يذكر ما سيقع عليه من إماتة الله تعالى له ثم إحيائه، ويتضمن الإقرار بالإماتة (يُمِيتُنِي) الاعتراف بالخلق من عدم. ومنها قوله تعالى: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) [غافر: ١١]، التي قد يكون سبب تقديم الإماتة فيها هو الاعتراف بكامل الحقيقه بدءًا من العدم إلى الوجود إلى الموت إلى الحياة الأخرى استعطافا لجلال الله لرؤيتهم النار، ورغبتهم في الخروج منها. ومنها قوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) [النجم: ٤٤]، وذكر البقاعي في تقديم الإماتة فيها أنه " لما كان الإلباس في الموت أكبر وكان الموت أنسب للبكاء، والإحياء أنسب للضحك، وكان طريق النشر المشوش أفصح قدمه فقال: (أَمَاتَ وَأَحْيَا) وإن رأيت أسبابًا ظاهرية فإنه لا عبرة بها أصلاً في نفس الأمر بل هو الذي خلقها"([٢٣٥])، فأرجع سبب تقديم الموت لأمرين أولهما أن معرفة الناس له أكثر غموضًا، وثانيهما مجاورته للبكاء في الآية السابقة عليه، ورأى الرازي "أنه على التقديم والتأخير كأنه قال: أحيا

[٢٣٤] البقاعي ج ١ ص ٢١٦ وانظر الرازي ج٣٠ص٥٥ اية الملك ٢.
[٢٣٥] البقاعي ج ١٩ ص ٧٤-٧٥

وأمات"([٢٣٦]) أو "أمات أي خلق الموت والجمود في العناصر، ثم ركبها وأحيا أي خلق الحس والحركة فيها"([٢٣٧])، ويشبه هذا ما يذكره الطاهر بن عاشور من أن سبب تقديم الإماتة تاريخي؛ لأن (الإنسان) أول وجوده نطفة ميتة ثم علقة ثم مضغة، ثم يصرح بأن سبب تقديم الإماتة هو أنها المقصودة بالعبرة ردًّا على زعمهم: (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) [الجاثية: ٢٤]، وأن الإحياء تتميم، وكذلك رعاية الفاصلة([٢٣٨]).

ومما ذكره الرازي في تقدم ذكر خلق الموت في قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) [الملك: ٢]، أنه "قدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم؛ لأنه فيما يرجع إلى الغرض له أهم"([٢٣٩])، وقريب منه ما ذكره الشعراوي من أن ذكر خلق الموت "لأن الحياة ستورث الإنسان غرورًا في سيطرة إرادته على جوارحه فيطغى، فأراد ربه عز وجل أن ينبهه : تذكر أنني أميت ليستقبل الحياة ومعها نقيضها، فيستقيم في حركة الحياة"([٢٤٠]).

أما قوله تعالى: (فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) [البقرة:٢٥٩]، وقوله تعالى: (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) [البقرة: ٢٤٣]، فإن تقديم الموت مناسب لحكاية حالهم؛ لأنهم كانوا أحياءً فأماتهم الله.

## الخاتمة

تناول هذا البحث بالدراسة: الإحياء والإماتة في القرآن الكريم في ضوء السياق البلاغي، وتبين أنها وردت على ثلاثة أقسام، الأول: انفراد الله تعالى بالإحياء

---

[٢٣٦] الرازي ج ٢٩ ص ١٩

[٢٣٧] السابق

[٢٣٨] انظر الطاهر ج٢٧ ص ١٤٤و الرازي ح ٣٠ص٥٥ اية الملك٢

[٢٣٩] الرازي ج ٣٠ ص ٥٥

[٢٤٠] الشعراوي ج ١٦ ص ١٠١١٤ تفسير المؤمنون (٨٠)

والإماتة استدلالاً على الألوهية وكمال القدرة ومنها القدرة على البعث، وثانيهما: إثبات قدرة الله تعالى على البعث بإيقاع فعل الإحياء على الموتى، وثالثها: إدماج الاستدلال على الوحدانية وكمال القدرة في الامتنان على الخلق بنعمة إحياء الأرض بعد موتها.

وجاءت صياغات آيات كل قسم من هذه الأقسام بما يحقق الهدف منها، ولذلك نجد أغلب آيات القسم الأول التي أرادت إثبات انفراد الله تعالى بحقيقة الألوهية التي من مظاهرها الإحياء والإماتة اللذيْن لا يدعيهما أحد قد جاءت بأسلوب القصر، وتنوع مفعولها حسب السياق بين ضمير مخاطب أو متكلم أو غائب، أو محذوف ليفيد شمول قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة لكل مخلوق ولكل معنى ولكل شيء.

وجاء فعل الإحياء في القسم الثاني مؤكدًا لوقوع لفظ الموتى مفعولا لفعل الإحياء مما يؤكد تحقق قدرة الله تعالى على البعث؛ لأن وجود المفعول يعني تحقق وقوع الفعل.

ووقع الإحياء على الأرض بعد موتها في القسم الثالث تأكيدًا لحقيقة الإحياء وإدماجًا للامتنان فيه؛ لأن نعمة إحياء الأرض من أجل النعم على العباد.

وجاء القسم الأول في سياق الرد على كفر الكافرين وتكذيب المكذبين بألوهية الله تعالى وكمال قدرته ومنها القدرة على البعث، وقريب منه في الرد على الكفر القسم الثاني إلا أنه جاء في الرد على تكذيبهم بالبعث وجاء القسم الثالث في سياقات امتنان تثبت الألوهية والقدرة وتمتن على العباد بنعم الله تعالى استمالة لهم للإيمان وحثًّا لهم على الشكر.

وتفاوتت الأقسام الثلاثة في درجات التوكيد فقليلاً ما ورد الإحياء والإماتة في القسم الأول مؤكدًا بأدوات التوكيد ولعل ذلك لعدم منازعة أحد من الكفار في كونهما من اختصاص الله تعالى. ومع تأكد تحقق فعل الإحياء في القسم الثاني إلا أنه جاء مؤكدًا في أكثر من سياق ولعل السبب يعود إلى أن تكذيب الكفار بالبعث كان أشد

أنواع تكذيبهم. ووردت آيات القسم الثالث غير مؤكدة إلا في عدة مواضع ولعل ذلك لوضوح الآية وعدم جدال الكافرين فيها؛ بل إيمانهم أن منزل المطر ومحيي الأرض هو الله تعالى.

وجاء الإحياء في القسم الأول والثاني في أغلب السياقات على الحقيقة؛ لأنه يثبت وحدانية الله تعالى وكمال قدرته ومنها القدرة على البعث، وورد مرة واحدة على المجاز باستعارة الإحياء لدخول الإنسان في الإسلام، وعدة مرات بتشبيه إحياء الله تعالى للقلوب بإحياء الإنسان، وجاء في القسم الثالث من قبيل الاستعارة لما بين الحركة والحس والنماء في الإنسان والحركة والنماء والامتداد والنماء في النبات من التشابه في الوجود وفي الوظيفة.

وتقدم فعل الإحياء الأول في غالب السياقات وذلك لطبيعة الأمر تاريخيًا؛ لأن الإنسان يكون في العدم فيحييه الله تعالى ثم يميته ثم يحييه الإحياء الثاني، ولأن زمن الحياة أكثر؛ لأن الحياة الأخرى حياة الخلود فالبقاء فيها هو أكثر الزمن. وتقدم الموت عدة مرات كما في آية البقرة التي تقدم فيها ذكر الإحياء من العدم، ولعل ذلك لذكر قصة أول الخلق وهي خلق آدم عليه السلام، وآية غافر الإشارة إلى رحلة الخلق من العدم مما اقتضى المقام ذكره اعترافًا لله تعالى بالحقيقة استشفاعًا به للخروج من النار، وجاء تقدمه تاريخيًا في اعتراف إبراهيم عليه السلام بأن ربه سيميته لأنه حي الآن.

## المراجع والمصادر:

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القران الكريم، محمد بن محمد أبو السعود ت ٩٥١ هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثانية ١٤١١ هـ ١٩٩٠م.

٢- البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق عادل عبد الموجود الشيخ علي معوض، شارك في تحقيقه د. زكريا النوتي، د. أحمد الجمل، دار الكتب العلمية لبنان الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

٣- بيان إعجاز القران ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القران الكريم، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، تحقيق د. محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام دار المعارف الطبعة الرابعة، وطبعة دار المعرفة بيروت – لبنان الطبعة الخامسة ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.
٤- التحرير والتنوير، الإمام محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ م.
٥- التسجيل العلمي لندوة الدراسات البلاغية : الواقع والمأمول جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، كلية اللغة العربية، كلية البلاغة والنقد ومنهج الادب الاسلامي ٢١ – ٢٢ / ٦ / ١٤٣٢ هـ
٦- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ١٤٣٣ هـ ٢٠٠٢ م، الطبعة السادسة عشرة، دار الشروق / القاهرة.
٧- تفسير البيضاوي العظيم، أبي سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد ت ٦٩١ هـ ضمن حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي ت ١٠٦٩هـ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٧م.
٨- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم قطاع الثقافة، القاهرة، مصر، ١٩٩١م.
٩- تفسير القران العظيم، الإمام الجليل الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر صيدا – بيروت ١٤١٩ هـ ١٩٩٩م.
١٠- التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي/ بيروت.
١١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن تفسير الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٤٢٢هـ-٣١٠ هـ، دار الحديث – القاهرة ١٤٣١ هـ-٢٠١٠م.
١٢- الجامع لأحكام القران، أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي ت:٦٧١هـ، صححه أحمد عبد العليم البردوني دار الكتاب العربي الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ ١٩٥٢م.

١٣- خصائص التراكيب، د. محمد محمد ابو موسى، الطبعة الخامسة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، مكتبة وهبة/ القاهرة.
١٤- درة التنزيل وغرة التأويل لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني الإسكافي ت ٤٢٠ هـ، تحقيق د.محمد مصطفى آيدن الطبعة الاولى ١٤٢٢- هـ ٢٠٠١ م، جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية.
١٥- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، دار المدني بجدة، مطبعة المدني بمصر.
١٦- رسالة بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز تحقيق محمد خلف الله أحمد، دكتور محمد زغلول سلام، الطبعة الرابعة، دار المعارف.
١٧- روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمد الألوسي ت ١٢٧٠هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.
١٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني.
١٩- كشف المعاني في متشابه المثاني، بدر الدين بن جماعة، ت ٧٣٣ هـ، تحقيق د.محمد محمد داوود الطبعة الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، دار المنار للنشر والتوزيع/ مصر.
٢٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية ت ٥٤٦هـ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.
٢٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن البقاعي ت ٨٨٥ هـ، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
٢٣- ظلال القرآن، سيد قطب طبعة ١٢، ١٤٠٦هـ، دار العلم للطباعة والنشر/ جدة، دار الشروق للطباعة والنشر/ القاهرة.